المطلب العاشر

النِّداء القرآني العامُّ إلى المخلوق

جدول توضيحي لصيغ الخطاب القرآني العام من المخاطِب إلى المخلوق:

١ - ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾	٩ - ﴿يَا بَنِي آدَمَ..﴾	١٧ - ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾
٢ - ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ..﴾	١٠ - ﴿.. يَا قَوْمِ...﴾	١٨ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا...﴾
٣ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾	١١ - ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ...﴾	١٩- ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا..﴾
٤ - ﴿..يَا أُولِي الأَلْبَاب..﴾	١٢- ﴿..يَا عِبَادِ...﴾ ﴿يَا عِبَادِيَ..﴾	٢٠- ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ...﴾
٥ - ﴿..يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾	١٣- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ..﴾	٢١ - ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾
٦ - ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾	١٤- ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ..﴾	-
٧ - ﴿...يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾	١٥ -﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ..﴾	-
٨ - ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ..﴾	١٦ - ﴿.. يَا قَوْمَنَا..﴾	-

وإليك بيان هذه الصيغ:

أولًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ...﴾ [البقرة:٢١]:

١ - بيان المعنى:

يقول الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النَّاس اسم جمع على ما حقَّقه جمع[(١)]، والجموع وأسماؤها المحلَّاةُ -بأل- للعموم حيث لا عهد خارجي[(٢)]، كما يدلُّ عليه وقوع الاستثناء[(٣)]، والأصل فيه الاتِّصال[(٤)]، وهو يقتضي الدُّخول يقينًا، ولا يتصوَّر إلا بالعموم. ونحو:

---

(١) انظر: القواعد والفوائد الأصوليَّة، للبعليِّ (١/١٩٤)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/٢٣٦٢)، المختصر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد، للبعليِّ (ص:١٣٦)، والمسودة (ص:٩٥).

(٢) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٢/٢٥٢).

(٣) وممَّا استدلَّ به الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا صحَّة الاستثناء، والأصل فيه الاتِّصال، فعندما أقول مثلًا: (الطُّلاب أو الطَّلبة إلا فلانًا، أو إلا كليَّة كذا مثلًا يأتونني)...، فلولا أنَّ كلمة: (الطُّلاب) تفيد العموم ما صحَّ الاستثناء، أو يقال: لولا أنَّها شملت الطَّلبة المستَثنين ما صحَّ الاستثناء، فلو كانت الطُّلاب موضوعة للخصوص لكان ذكر (طلبة كذا) عبثًا..؛ ولذلك اشتهر بين العلماء أنَّ (الاستثناء معيار العموم)، فكلُّ ما جاز الاستثناء منه كان عامًّا، وما لا يجوز الاستثناء منه فليس بعامٍّ، ومثال ذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:٢-٣]، فإنَّ الاستثناء في الآية دلَّ على أنَّ كلمة (الإنسان) عامّة، ولفظ: (الإنسان) اسم جنس محلَّى بالألف واللاَّم فيفيد العموم، ولولا الاستثناء لكان كلُّ إنسان في خسرٍ سواء كان مؤمنًا أو كافرًا. فمن قال: إن المفرد المعرف (بأل) لا يعم. يرد عليه بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾؛ إذ لو لم يعم كل إنسان لما استثنى منه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

(٤) قوله: (الأصلُ في الاستثناء الاتِّصال)، فإنَّ (المتَّصل) ما كان من جنس المستثنى منه، و(المنقطع) خارج عن جنس المستثنى منه. مثال ذلك: (جاء الطُّلاب إلا المقاول فلان، أو إلا العمال..)، فهذا استثناء منقطع، فالأصل في الاستثناء الاتِّصال بحيثُ لا يُصَار إلى الانقطاع إلا إذا قامت قرينة بيِّنة تدلُّ على أننا نتحدَّث عن غير هذا الجنس، وأننا ذكرناه لفائدة معينة، كما يقال: (جاءَ القومُ إلا حمارًا) وكأنِّي أقول: (حمارًا) ليس من جنس القوم، وأنا أذكره الآن لفائدة أخرى، كأنِّي أقول: لا يصح أن يغيب عن المخاطَب أن حديثي قاصر على هذا الجنس، فلا تحاول أن تلحق بهذا الجنس آخر.

(ضربتُ زيدًا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضانَ إلَّا عشره الأخير) عامٌّ تأويلًا[1]، وكذا التَّأكيد بما يفيد العموم؛ إذ لو لم يكن هناك عموم كان التَّأكيد تأسيسًا[2]، والاتفاق على خلافه، وشيوع استدلال الصَّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بالعموم كما في حديث السَّقيفة[3]، وهم أئمَّة الهدى.

---

(١) أورد الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ اعتراضًا، وهو: كيف يقال: الاستثناء يفيد العموم؟ فكأنَّه يقول: سآتي لكم بخاصٍّ وقع فيه الاستثناء، كما يقال: (ضربت زيدا إلا رأسه)، و(صمتُ رمضان إلا يومًا). فـ (زيد) خاصٌّ، وصحَّ منه الاستثناء، و(رمضان) شهرٌ مخصوص، وقد وقع الاستثناء منه. والجوابُ أنَّه عامٌّ تأويلًا، فهو خاصٌّ من ناحية عدم شموله لغيره، لكنَّه عامٌّ باعتباره كلًّا له أجزاء، فالكلُّ أعمُّ من جزئه.

(٢) استدلَّ الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ أيضًا بالتَّأكيد بما يفيد العموم، كالتَّأكيد بـ:(كل) و(جميع)، وهما من ألفاظ العموم، فعندما يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر:٣٠]، فلو لم يكن لفظ: (الملائكة) شاملًا لكافة أفراد الملائكة، بل كان مخصوصًا بالبعض دون البعض، لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا لا تأكيدًا، والاتفاق على خلاف ذلك، حيث إنَّ هذه الألفاظ عند العرب هي للتأكيد، بمعنى أنَّها تؤكِّد ما عُلم سابقًا مع رفع احتمال التَّخصيص، فعندما أقول: (جاء الطلاب) يحتمل في عقل البعض أنَّ (محمَّدًا) لم يأت، فعندما أقول: (كلهم) أو (أجمعون) أكون قد رفعت احتمال التَّخصيص. وعندما أقول: (جاء محمد نفسه) أكون قد رفعت احتمال المجاز؛ لأنه يحتمل في عقل البعض أن الذي أتى رسولُهُ مثلًا...فلو كان لفظ: (النَّاس) خاصًّا لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا، مع أنَّها تأكيد باتفاق. وتنظر ألفاظ العموم على سبيل المثال. إرشاد الفحول (ص:٢١٣)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/٢٨٨-٢٩٦)، التَّلخيص، للجويني (٢/١٤) فما بعد، والمحصول (٢/٥١٣) فما بعد، وشرح التَّلويح (١/٨٨) فما بعد، والمدخل، لابن بدران (ص:٢٤٠)، وروضة النَّاظر (١/٢٢١)، وكشف الأسرار على أصول فخر الإسلام، للبزدويِّ (٢/٣) فما بعد. ومذكِّرة الشَّيخ محمَّد الأمين الشِّنقيطي على روضة النَّاظر (ص:٢٠٤) فما بعد.

(٣) وذلك عندما احتجَّ المهاجرون به على الأنصار يوم (ثقيفة بني ساعدة) من أنَّ الإمامة في قريش، فعندما انتقل الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الرَّفيق الأعلى ذهب الأنصارُ قبل المهاجرين إلى (ثقيفة بني ساعدة) ثمَّ تبعهم المهاجرون، ثمَّ اختلفوا من الإمام بعد النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالأنصار يقولون: نحن أولى، والمهاجرون يقولون: نحن أولى، فجاء أبو بكر الصِّديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فذكر قولَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الأئمَّة من قريش))، و(الأئمَّة) جمع (إمام)، وقد دخلت عليها الألف واللام، فلو كانت (أل) إذا دخلت على الجمع لا تفيد العموم لكانت كلمة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غير مفيدة، وقد سمع ذلك جمع من أصحاب النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم تكن القضية لتنتهي لولا دخول (أل) التي تفيد العموم. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٤٨): حديث ((الأئمة من قريش)) رواه النسائي=

ثمَّ هذا الخطاب في نحو: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ﴾ يسمَّى بـ: (الخطاب الشِّفاهي) عند الأصوليين. قالوا: وليس عامًّا لمن بعد الموجودين في زمن الوحي، أو لمن بعد الحاضرين مهابط الوحي. والأوَّل هو الوجه، وإنما يثبت حكمه لهم بدليل آخر من نصٍّ أو قياس أو إجماع، وأمَّا بمجرَّد الصِّيغة فلا. وقالت الحنابلة: بل هو عامٌّ لمن بعدهم إلى يوم القيامة[1].

واستدلَّ الأوَّلون بأنَّا نعلم أنَّه لا يقال للمعدومين نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

قال العضد رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: وإنكاره مكابرة، وبأنَّه امتنع خطاب الصَّبيِّ والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجِّهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب، فالمعدوم أجدر أن يمنع؛ لأنَّ تناوله أبعد[3]. واستدلَّ الآخرون بأنَّه لو لم يكن الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مخاطبًا به لمن بعدهم لم يكن مرسلا إليهم، واللاَّزم منتف، وبأنَّه لم يزل العلماء يحتجُّون على أهل الأعصار ممن بعد الصَّحابة بمثل ذلك، وهو إجماع على العموم لهم.

وأجيب...

أمَّا عن الأوَّل: فبأن الرِّسالة إنَّما تستدعي التَّبليغ في الجملة، وهو لا يتوقَّفُ على المشافهة، بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهًا، وللبعض بنصب الدَّلائل والأمارات على أنَّ حكمهم حكم الذين شافههم.

=والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح". وهو عند الحاكم [٨٥٢٨] بلفظ: ((الأمراء من قريش))، قال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، وللحديث أطراف.

(١) انظر: التَّقرير والتَّحبير (٢٨٩/١)، التَّحبير شرح التَّحرير (٢٤٩٥/٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٣٢٢/٢).

(٢) هو (عضد الدِّين الإيجي) عبد الرَّحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدِّين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربيَّة. من أهل (إيج) بفارس، ولِّي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا. وجرت له محنة مع صاحب (كرمان)، فحبسه بالقلعة، فمات مسجونًا [٧٥٦هـ]. الأعلام (٢٥٩/٣)، بغية الوعاة (٧٥/٢).

(٣) انظر: حاشية العلامة سعد الدِّين التَّفتازاني، وحاشية السَّيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدِّين لمختصر المنتهى للإمام ابن الحاجب المالكي مع حاشية المحقق الشَّيخ حسن الهروي على حاشية السَّيد الجرجاني (١٥/٢-١٦).

وأمَّا عن الثَّاني: فبأنَّه لا يتعيَّن أن يكون ذلك لتناوله لهم، بل قد يكون؛ لأنَّهم علموا أنَّ حكمه ثابت عليهم بدليل آخر قاله غير واحد.

وفي شرح العلاَّمة الثَّاني للشرح العضدي[1] أنَّ القول بعموم الشِّفاهي وإنْ نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أَجِلَّة المحققين: إنَّه المشهور حتَّى قالوا: إنَّ الحقَّ أنَّ العمومَ معلومٌ بالضَّرورة من الدِّين المحمَّدي، وهو الأقرب، وقول العضد: إنَّ إنكاره مكابرة حقٌّ لو كان الخطاب للمعدومين خاصّةً، أمَّا إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التَّغليب فلا، ومثله فصيحٌ شائعٌ، وكلُّ ما استدلَّ به على خلافه ضعيف. انتهى.

وإلى العمومِ ذَهَبَ كثيرٌ من الشَّافعية[2] على أنَّه عندهم عامٌّ بحقِّ لفظه ومنطوقه من غير احتياجٍ إلى دليل آخر. وقد قيل: إنَّه من قبيل الخطاب العامِّ الذي أجرى على غير ظاهره كما في قوله:

(إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ ملكته***وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئيمَ تمرَّدا)"[3].

وقد حقَّق الأستاذُ الدُّكتور إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ القولَ في ذلك مبيِّنًا أنَّ قول الجمهور هو الصَّواب والمتعيِّن من كون الخطابات الشِّفاهية تشملهم حقيقةً، ولا تشملُ غيرهم إلا على سبيل المجاز..، وسآتي على بيان أهمِّ ما ذكره الدُّكتور إبراهيم خليفة من التَّعقيب على كلام الألوسي في كلامه الآنف الذِّكر..بإيجاز؛ وذلك لأهميَّته، وحيث لم أجد نظيرًا لما ذكره، مع الإحالة إلى (تفسير سورة النِّساء)..[4].

---

(١) يعني: سعدَ الدِّين التَّفتازاني، ويعني من (الشَّرح العضديِّ) شرح العلامة عضد الدِّين الإيجي على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وكلُّها مطبوعةٌ في كتاب واحد (٢/١٥–١٦).

(٢) انظر: الشَّذا الفيَّاح من علوم ابن الصَّلاح (٢/٤٧٦)، التَّقرير والتَّحبير (١/٢٨٩)، تيسير التَّحرير (١/٢٥٦)، التَّحبير شرح التَّحرير (٥/٢٤٩٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢/٣٢٢).

(٣) روح المعاني (١/١٨٣–١٨٤). ينظر: الكليَّات (ص:٦٦١–٦٦٢). والبيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص:٣٧٢)، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٣هـ]، وانظر: خزانة الأدب (١/٢٠٠)، قرى الضَّيف (١/٢٥١)، المستطرف (٢/١٧١)، تهذيب الرِّياسة (ص:١٢٤).

(٤) تفسير سورة النِّساء، من (ص:١١٧) إلى (١٣٠).

يقول أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أمَّا حديث التَّغليب فإنَّه جارٍ على وفقِ دعوى الجمهور، فمن المتقرِّر لدى علماء البيان أنَّ (دلالة التَّغليب) مجاز لا حقيقة؛ فإنَّه ليس إلا (التَّجريد البياني)، وهو إمَّا راجع لعلاقة التَّقييد حسبما هو الصَّحيح المتَّجه[1]، كما يقال: (قمران) عن الشَّمس والقمر[2]، فنكون قد جرَّدنا القمر عن قيوده المشخِّصة له، والمميِّزة له عن كوكب الشَّمس فإطلاقه على مطلق (الكوكب المنير) الشَّامل لليلي والنَّهاري، وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشَّمس.

وإمَّا أن يكون (التَّجريد البياني) علاقة مستقلَّة من علاقات المجاز المرسل؛ فإنَّ الأمر مجاز لا حقيقة. وكذلك فيما حكاه الألوسي في قوله: إنَّه من قبيل العامِّ الذي أجري على غير ظاهره..الخ؛ فإنَّ الخروج عن الظَّاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التَّغليب كما في البيت المذكور، بأن يغلب المشافه على غيره من مطلق من تحقق فيه الأهليَّة للخطاب، أم كان من غير هذا الباب.."[3].

ثمَّ قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي تناول نحو هذه الصِّيغة للعبيد شرعًا حتَّى يعمَّهم الحكم خلافٌ، فذهب الأكثرون إلى التَّناول؛ لأنَّ العبد من النَّاس مثلا فيدخل في الخطاب العامِّ له قطعًا، وكونه عبدًا لا يصلح مانعًا لذلك. وذهب البعض إلى عدم التَّناول. قالوا: لأنَّه قد ثبت بالإجماع صرفُ منافع العبد إلى سيِّده، فلو كلِّف بالخطاب لكان صرفًا لمنافعه إلى غير سيِّده، وذلك تناقض، فيتبع الإجماع، ويترك الظَّاهر. وأيضًا خرج العبد عن الخطاب بالجهاد والجمعة والعمرة والحجِّ..والتَّبرعات والأقارير ونحوها، ولو كان الخطاب متناولًا له للعموم لزم التَّخصيص، والأصل عدمه.

---

(١) أي: بالنَّظر إلى المعنى المنتقل عنه.

(٢) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٣٤٨/٤-٣٤٩)، جواهر البلاغة (ص:٢٢٧)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (٩٠٠/١)، وانظر: صبح الأعشى (٤٠٦/١٤)، مفردات غريب القرآن الكريم، للأصفهاني، مادَّة: (بحر) (ص:١٠٩)، ولسان العرب، مادَّة: (بحر)، بصائر ذوي التَّمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢٢٦/٢).

(٣) بتصرف عن (تفسير سورة النساء) (ص:١٢٣-١٢٤).

والجواب عن الأوَّل: أنَّا لا نُسلِّم صرف منافعه إلى سيِّده عمومًا، بل قد يستثنى من ذلك وقت تضايق العبادات حتَّى لو أمره السيِّد في آخر وقت الظُّهر، ولو أطاعه لفاتته الصَّلاة، وجبت عليه الصَّلاة، وعدم صرف منفعته في ذلك الوقت إلى السيِّد. وإذا ثبت هذا فالتَّعبد بالعبادة ليس مناقضا لقولهم: بصرف المنافع للسيِّد.

وعن الثَّاني: بأنَّ خروجه بدليل اقتضى خروجه، وذلك كخروج المريض والمسافر والحائض عن العمومات الدَّالة على وجوب الصَّوم والصَّلاة والجهاد، وذلك لا يدلُّ على عدم تناولها اتفاقًا. غايته أنَّه خلافُ الأصل ارتكب لدليل وهو جائز. ثمَّ الصَّحيح أنَّ الأمم الدَّارجة قبل نزول هذا الخطاب لا حَظَّ لها فيه؛ لاختصاص الأوامر والنَّواهي بمن يتصوَّر منه الامتثال، وأنَّى لهم به؟ وهم تحت أطباق الثَّرى لا يقومون حتَّى ينفخ في الصُّور.

وجوَّز بعضُهم كون الخطاب عامًّا بحيث يندرجون فيه. ثمَّ قال: ولا يبعد أن يكون الأمر الآتي عامًّا لهم أيضا بالنِّسبة إلى الكلام القديم القائم بذاته عَزَّوَجَلَّ، وإن كان كونه عربيًّا عارضًا بالنِّسبة إلى هذه الأمّة، وفيه نظر؛ لأنَّ المنظور إليه إنَّما هو أحكام القرآن بعد النُّزول، وإلا لكان النِّداء وجميع ما فيه من خطاب المشافهة مجازات، ولا قائل به، فتأمَّل. وعلى العلات لفظ: (النَّاس) يشمل الذُّكور والإناث بلا نزاع. وفي شمول نحو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١] خلاف. والأكثرون على أنَّ الإناث لا يدخلنَ في مثل هذه الصِّيغة ظاهرًا خلافًا للحنابلة[1].

استدلَّ الأولون بأنَّه قد روى عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أنَّها قالت: يا رسول الله: إنَّ النِّساء قُلنَ: ما نرى الله عَزَّوَجَلَّ ذكر إلا الرِّجال فأنزل ذكرهنَّ[2]، فنفت ذكرهنَّ مطلقًا،

---

(١) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص:٤١)، روضة النَّاظر (ص:٢٣٦)، وينظر: التَّقرير والتَّحبير (٢٧١/١)، المحصول، لابن العربي (ص:٧٨)، قواطع الأدلة (١١٥/١)، إجابة السَّائل شرح بغية الآمل (ص:٣١٠)، رفع الحاجب (٣٠٨/٣)، نهاية السُّول (ص:٣٩٠)، المحصول، للرَّازي (٦٢٣/٢).

(٢) أخرجه أحمد عن أم سلمة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا بلفظ: قالت: قلت: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرِّجال؟...الخ. أخرجه أحمد [٢٦٥٧٥]، [٢٦٦٠٣]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٤١] وابن=

ولو كنَّ داخلات لما صدق نفيهنَّ، ولم يجز تقريره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للنَّفي، وبأنَّه قد أجمع أرباب العربيَّة على أنَّ نحو هذه الصِّيغة جمع مذكَّر، وأنَّه لتضعيف المفرد، والمفرد مذكَّر، وبأنَّ نظير هذه الصِّيغة (المسلمون)، ولو كان مدلول (المسلمات) داخلا فيه لما حسن العطف في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] إلا باعتبار التَّأكيد، والتَّأسيس خير من التَّأكيد..

وقال الآخرون: المعروف من أهل اللِّسان تغليبهم المذكَّر على المؤنث عند اجتماعهما باتِّفاق، وأيضًا لو لم تدخل الإناث في ذلك لما شاركن في الأحكام لثبوت أكثرها بمثل هذه الصِّيغة، واللاَّزم منتف بالاتفاق، كما في أحكام الصَّلاة والصِّيام والزَّكاة. وأيضًا لو أوصى لرجال ونساء بمائة درهم، ثمَّ قال: (أوصيت لهم بكذا) دخلت النِّساء بغير قرينة، وهو معنى الحقيقة، فيكون حقيقة في الرِّجال والنِّساء، ظاهرًا فيهما، وهو المطلوب. وأجيب: أمَّا عن الأوَّل فبأنَّه إنما يدلُّ على أنَّ الإطلاق صحيحٌ إذا قصد الجميع، والجمهور يقولون به، لكنَّه يكون مجازًا، ولا يلزم أن يكون ظاهرًا، وفيه النِّزاع. وأمَّا عن الثَّاني فبمنع الملازمة. نعم يلزم أن لا يشاركهن في الأحكام بمثل هذه الصِّيغة، وما المانع أن يشاركنَ بدليلٍ خارج؟ والأمر كذلك؛ ولذلك لم يدخلنَ في الجهاد والجمعة مثلا، لعدم الدَّليل الخارجي هناك. وأمَّا عن الثَّالث فبمنع المبادرة ثمة بلا قرينة، فإنَّ الوصيَّة المتقدِّمة قرينة دالَّة على الإرادة، فالحقُّ عدم دخول الإناث ظاهرًا. نعم الأولى هنا القول بدخولهن باعتبار التَّغليب، وزعم بعضهم أن لا تغليب، بل الأمر للرِّجال فقط كما يقتضيه ظاهر الصِّيغة، ودخول الإناث في الأمر بالتَّقوى للدَّليل الخارجي، ولا يخفى أنَّ

=راهويه [١٨٧١]، والطبراني في (الكبير) [٦٥٠]. وأخرجه الترمذي وحسنه [٣٢١١] عن أم عمارة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال وما أرى النساء يذكرن بشيء؟ فنزلت..

هذا يستدعي تخصيص لفظ: (النَّاس) ببعض أفراده؛ لأنَّ إبقاؤه حينئذ على عمومه مما يأباه الذَّوق السَّليم"[1].

والحاصل أنَّ الخطابات الشَّرعية سواء في ذلك خطابات الكتاب والسُّنة تسمَّى في عرف الأصوليين (الخطابات الشِّفاهية) يقصدون الخطابات التي شافه بها الله عَزَّوَجَلَّ، أو النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ المكلَّفين.

أمَّا بالنِّسبة للمنتظمين في سلك التَّكليف وقت هذه الخطابات من الذُّكور الأحرار فإنَّ الخطاب يشمله قطعًا على سبيل الحقيقة..

أمَّا غير المكلفين يومئذٍ كالصِّغار فضلًا عن الذين لم يوجدوا بعد، فهل هذه الخطابات تشملهم أو لا تشملهم؟

فأوَّل ما يتقرَّر في ذلك أنَّ خلاف المختلفين ليس في المطالبة بمضمون هذه الخطابات، وإنَّما الخلاف في الدِّلالة على الحكم، فمثلا قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمن يقول: الخطابات تشمل المكلَّفين ومن سيكلف، أي: من سينتظم في سلك التَّكليف على سبيل الحقيقة، سيقولون: الخطاب للكلِّ..، وهؤلاء هم الحنابلة -كما سبق- حيث يقولون: (الخطابات الشِّفاهيَّة) تشمل من هو مكلَّف ومن ليس مكلَّفًا إلى يوم القيامة.

والجمهور قالوا: لا تشمل من لم يكن يومئذٍ مكلَّفًا على سبيل الحقيقة؛ وذلك لأنَّ معظم غير المكلَّفين يومئذٍ كانوا معدومين. فهل يصلح (خطاب المعدوم)؟

ولتوضيح ذلك يقال: لنتصوَّر أنَّ إنسانًا لم يتزوج مثلًا، فيقول -وهو يتصوَّر أنَّه سينجبُ ولدًا، ويسمِّيه محمَّدًا، ويدخله المدرسة- فوقف وقال: (يا محمَّد أقم الصَّلاة)، فلا شكَّ أنَّ ذلك عبث. فإذا تزوج فعلا وأنجب طفلا، ولا زال مثلا في الأيام الأولى من ولادته، فقال له: (أقم الصَّلاة)، أو قال له: (يا محمَّد اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا)، طبعًا هذا عبث أيضًا.

---

(١) روح المعاني (١٧٩/٤-١٨٠). ينظر ما أورده الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في (تفسير سورة النِّساء) من (ص:١٢٨)، إلى (١٣٠)، وتفسير أبي السُّعود (٥٨/١)، وينظر: تفسير أبي السُّعود أيضًا (١٣٨/٢).

فإذا كان خطاب الموجودين القاصرين عن أهليَّة التَّخاطب عبثًا، فما بالكم بالمعدوم؟ ولا ينكر ذلك إلا مكابر كما ذكر العضد..

ولكن الحنابلة يقولون: هل النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ، أم إلى جميع النَّاس إلى يوم القيامة؟ أليس النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسل للعالمين، والقرآن أنزل للنَّاس كافّةً؟

وقد ردَّ الجمهور على ذلك بأنَّا مسلِّمونَ بأنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ للجميع، ولكن لا نُسلِّم أنَّ الإرسال متوقِّف على (الخطابات الشِّفاهيَّة)، فإذا خَاطَبَ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المكلَّفين، يأتي بعد ذلك المخاطَبون فيقولون لمن بعدهم: النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسل إلى الجميع، وقد لزمنا الخطاب لكوننا مكلَّفين، فإذا صرتم مكلَّفين، أو تحقَّقتْ فيكم شروطُ التَّكليف لزمكم الحكمُ كما لزمنا بالقياس، ويذكر في ذلك النُّصوص الدَّالة على عموم الرِّسالة.

ثمَّ اعترض الحنابلة بعد ذلك بأنَّه قد شاع الاستدلال بالعمومات[1]، فيقولون: عندما يأتي ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيقول: السَّارق تقطع يده[2]، فيقال له: ما الدَّليل؟ فيقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فلولا شمول الآية لما صحَّ الاستدلال بها.

وأجيب بأنَّهم ذكروا ذلك، ولكن من أين لكم أنَّهم ذكروها على سبيل الاستدلال لا على سبيل بيان الحكم الذي تتضمَّنه؟ فالذي ألجأنا إلى ذلك الضَّرورة التي لا دافع لها..

---

(١) انظر: إرشاد الفحول (ص:٢٣٧).

(٢) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفيِّ قال سألتُ ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة:٣٨]، أخاصٌّ أم عامٌّ؟ فقال: بل عامٌّ. تفسير الطَّبري (٢٩٦/١٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (١٠٧/٣)، والدر المنثور (٧٣/٣)، تفسير القاسمي (١١٧/٣).

٢ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

ومن خلال تفسير أوَّل موضع وردت فيه هذه الصِّيغة تُفهم الحكمة من ذلك، فيقاس عليها غيرها من الآيات. وأمَّا أهميَّة ذلك فإنما تعلم بالتَّفكر والتَّأمل فيما ولي المنادَى، وأنَّه أمر عظيم ينبغي أن يتنبَّه له المخاطَب كما أنَّ النَّظر في أقوال المفسِّرين يزيد المخاطَب فهمًا لما ولي المنادَى يدفع عن تفكيره الإشكال، ويبصِّره بالعاقبة والمآل، وقد كانت العناية والاهتمام بذكر نماذج تطبيقيَّة تثري الموضوع، وتفتح أمامه الآفاق، وتجمع بين العلم والدَّعوة، وهما في حقيقة الأمر صنوان يُرْتَقي بهما إلى سُدَّة النَّجاة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الذى خَلَقَكُمْ وَالذينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فقد جاء أنَّ النِّداء إلى النَّاس كلِّهم لعبادةِ ربِّهم الذي خلقهم والذين من قبلهم. ربهم الذي تفرَّد بالخلق، فوجب أن يتفرَّد بالعبادة. وللعبادة هدف لعلَّهم ينتهون إليه ويحقِّقوه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾..لعلَّكم تصيرون إلى تلك الصُّورة المختارة من صور البشريَّة. صورة العابدين لله عَزَّوَجَلَّ. المتَّقين لله عَزَّوَجَلَّ. الذين أدَّوا حقَّ الرُّبوبيَّة الخالقة، فعبدوا الخالق وحده، ربُّ الحاضرين والغابرين، وخالق النَّاس أجمعين، ورازقهم كذلك من الأرض والسَّماء، بلا ندٍّ ولا شريك[(١)].

وهذا أمرٌ عامٌّ لكلِّ النَّاس، بأمرٍ عامٍّ، وهو العبادة الجامعة، لامتثال أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم عَزَّوَجَلَّ بما خلقهم له، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالأِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، إلى غير ذلك..

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصيغة من النِّداء فهو: [٢٠].

وأمَّا عدد التَّكرار فهو: [٢٠].

وهي على النَّحو الآتي:

---

(١) انظر: الظِّلال (١/٤٦-٤٧).

[البقـــرة:٢١-١٦٨]، [النِّســـاء:١ - ١٧٠- ١٧٤]، [الأعـــراف: ١٥٨]، [يـــــونس:٢٣ – ٥٧ – ١٠٤ – ١٠٨]، [الحـــــج:١ – ٥ – ٤٩ – ٧٣]، [النَّمل:١٦]، [لقمان:٣٣]، [فاطر:١٥]، [الحجرات:١٣][(١)].

ثانيًا: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ..﴾ [البقرة:٤٠]:

و(إسرائيل) هو يعقوبُ بنُ إسحاقَ بن إبراهيمَ، وقيل: (إسرا) بالعبرانيَّة: عبد، و(إيل) هو الله عَزَّوَجَلَّ، فكان اسمه: (عبدَ الله)[(٢)].

وذلك مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وقيل غير ذلك[(٣)].

---

(١) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص:٤٠٥)، وفاته أن يذكر في كتابه (عجائب علوم القرآن) الآية: [٣٣] من (سورة لقمان). انظر: عجائب علوم القرآن (ص:١٩١–١٩٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٥٣/١)، (٣٩٠/٢- ٣٩٢)، تفسير القرطبيِّ (٣٣١/١)، تفسير الماوردي (١١٠/١)، التَّحرير والتَّنوير (٤٥٠/١)، السِّراج المنير (٦١/١)، الرَّازي (٤٧٤/٣)، الدُّر المصون (٢٠٢/١). وينسب هذا القول إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا "حدَّثنا ابن حميد، حدَّثنا جرير، عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء، عن عُمير مولى ابن عباس عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أنَّ إسرائيل كقولك: عبد الله". تفسير الطَّبري (٥٥٣/١)، تفسير ابن كثير (٢٤١/١)، وانظر: الإتقان (٣٨٠/٢). وهذا إسناد صحيح. وإسماعيل بن رجاء بن ربيعة: ثقة، أخرج له مسلم في (صحيحه). وعمير مولى ابن عباس: هو عمير بن عبد الله الهلالي، مولى أمِّ الفضل، وقد ينسب إلى ولاء زوجها (العباس)، كما ورد في إسناد حديث آخر في المسند: [٧٧]، وقد ينسب إلى ولاء بعض أولادها، كما في هذا الإسناد، وهو تابعيٌّ ثقة، وأخرج له الشَّيخان وغيرهما. انظر: تقريب التَّهذيب (ص:٧٥٤)، تهذيب الكمال (٣٨١/٢٢)، إسعاف المبطأ برجال الموطأ (ص:٢٣)، تعجيل المنفعة (٨٨/١).

(٣) انظر: التِّبيان في تفسير غريب القرآن الكريم (٨٠/١)، وانظر التَّفصيل والقراءات في (تفسير القرطبي (٣٣١/١)، وروح المعاني (٢٤١/١)، انظر: إعراب القرآن وبيانه (٨٩/١).

وقد اختلفوا فيه، والأصحُّ أنَّه علمٌ أعجمي؛ ولهذا منع من الصَّرف، وهو مركَّبٌ تركيب الإضافة، فإنَّ (إسرا) هو العبد بالعبريَّة، و(إيل) هو الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تصرَّفت العربُ فيه بلغاتٍ أصحُّها لغة العرب..

وهنا كلام مهمٌّ للطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ يذكر التَّنوع في (خطاب بني إسرائيل)، ثمَّ يذكر وجه المناسبة لكلِّ خطاب، حيث يقول في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾: [هو] "خطابٌ لذريَّة يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وفي ذريَّته انحصر سائر الأمَّة اليهوديَّة. وقد خاطبهم بهذا الوصف دون أن يقول: (يا أيُّها اليهود)؛ لكونه هو اسم القبيلة، أمَّا اليهود فهو اسم النِّحلة والدِّيانة؛ ولأنَّ من كان متَّبعًا دين اليهوديَّة من غير بني إسرائيل كحِميَر[1] لم يعتدَّ بهم؛ لأنهم تبع لبني إسرائيل، فلو آمن بنو إسرائيل بالنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لآمن أتباعهم؛ لأنَّ المقلِّد تبع لمقلده"[2].

وقد جاء تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أنَّ هذا الخطاب للتَّذكير بنعمٍ أنعَمَ الله عَزَّوَجَلَّ بها على أسلافهم، وكراماتٍ أكرمهم بها فكان لندائهم بعنوان كونهم أبناء يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأعقابه مزيد مناسبة لذلك، ألا ترى أنه لما ذكروا بعنوان التَّدين بدين موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ذكروا بوصف (الذين هادوا) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الذينَ آمَنُوا وَالذينَ هَادُوا..﴾ الآية [البقرة:٦٢].

وتوجيه الخطاب إلى جميع بني إسرائيل يشمل علماءهم وعامَّتهم؛ لأنَّ ما خوطبوا به هو من التَّذكير بنعمة الله عَزَّوَجَلَّ على أسلافهم وبعهد الله عَزَّوَجَلَّ لهم. وكذلك نجد

---

(١) حمير: أبو قبيلة من (اليمن)، وهو حمير ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وهي قبيلة يمنية معروفة منذ أيام السَّبئيين، اشتدَّ نفوذها في أواخر عهد السَّبئيين، ثمَّ كوَّنت لنفسها دولة عاصمتها (ظُفار)، وقد استمر نفوذها حتَّى ظهور الإسلام، وكان لها لغة خاصَّة هي (الحميريَّة) وقد انقرضت. مؤسِّس القبيلة هو (حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب). انظر: الصِّحاح، مادَّة: (حمر) (٦٣٨/٢)، وكذلك في (لسان العرب) (٢٠٨/٤)، وانظر: المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٥٢/١)، تاريخ ابن الوردي (٥٦/١—٥٨)، تاريخ الإسلام (٣١٨/١١)، تاريخ الطَّبري (٢٦١/١) (٤٢٩/١)، معجم البلدان (١٤/٥—٣٥).

(٢) التَّحرير والتَّنوير (٤٤٩/١).

خطابهم في الأغراض التي يراد منها التَّسجيل على جميعهم يكون بنحو: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران:٦٤]، أو بوصف اليهود الذين هادوا، أو بوصف النَّصارى، فأمَّا إذا كان الغرض التَّسجيل على علمائهم فنجد القرآن يعنونهم بوصف: ﴿الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء:٤٧]، أو ﴿الذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الأنعام:٢٠].

وقد يستغنى عن ذلك بكون الخبر المسوق ممَّا يناسبُ علماءَهم خاصَّة مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. ونحو: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:٤١][(١)]. إلى غير ذلك من الآيات. فإذا جاء الخطاب بأسلوبٍ شاملٍ لعلمائهم وعامَّتهم صرف إلى كلِّ طائفة من الطَّائفتين ما هو لائق بها.

وهنا فائدة: فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾، أي: (يا أولاد إسرائيل)، والأصل في (بني) أن تكون للذُّكور، لكن إذا كانت لقبيلة، أو لأمَّةٍ شملت الذُّكور والإناث، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ [الأعراف:٢٦][(٢)].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٦].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٦].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة: ٤٠ – ٤٧ – ١٢٢]، [المائدة:٧٢]، [طه:٨٠]، [الصَّف:٦].

---

(١) انظر: المصدر السابق (١/٤٥٠).

(٢) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (الابن) (١/٦٢).

ثالثًا: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾ [البقرة:١٠٤]:

وصفَهم بالإيمان إثرَ تعدادِ ما يوجبه ويقتضيه؛ تنشيطًا لهم، وحثًّا على مراعاة ما يعقُبه من الأمر(١).

يناديهم بالصِّفة التي تميِّزهم، والتي تربطهم بربهم ونبيِّهم، والتي تستجيش في نفوسهم الاستجابة والتَّلبية(٢).

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيها هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٨٩].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٨٩](٣).

وهي على النَّحو الآتي:

[البقـــرة:١٠٤ – ١٥٣ – ١٧٢ – ١٧٨ – ١٨٣ – ٢٠٨ – ٢٥٤ – ٢٦٤ – ٢٦٧ – ٢٧٨ – ٢٨٢]، [آل عمـران:١٠٠ – ١٠٢ – ١١٨ – ١٣٠ – ١٤٩ – ١٥٦ – ٢٠٠]، [النِّســاء:١٩ – ٢٩ – ٤٣ – ٥٩ – ٧١ – ٩٤ – ١٣٥ – ١٣٦ – ١٤٤]، [المائـدة:١ – ٢ – ٦ – ٨ – ١١ – ٣٥ – ٥١ – ٥٤ – ٥٧ – ٨٧ – ٩٠ – ٩٤ – ٩٥ – ١٠١ – ١٠٥ – ١٠٦]، [الأنفـال:١٥ – ٢٠ – ٢٤ – ٧٢ – ٢٩ – ٤٥]، [التَّوبة:٢٣ – ٢٨ – ٣٤ – ٣٨ – ١١٩ – ١٢٣]، [الحج:٧٧]، [النُّور:٢١ – ٢٧ – ٥٨]، [الأحـزاب:٩ – ٤١ – ٤٩ – ٥٣ – ٥٦ – ٦٩ – ٧٠]، [محمَّـد:٧ – ٣٣]، [الحجـرات:١ – ٢ – ٦ – ١١ – ١٢]، [الحديـد:٢٨]، [المجادلـة:٩ – ١١ – ١٢]، [الحشـر:١٨]، [الممتحنـة:١ – ١٠ – ١٣]، [الصَّف:٢ – ١٤]، [الجمعة:٩]، [المنافقون:٩]، [التَّغابن:١٤]، [التَّحريم:٦ – ٨].

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (١/١٧٩).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١/١٠٠).

(٣) وذلك موافقٌ لما ذكره ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص:٤٠٧)، وكذلك في كتابه (عجائب علوم القرآن) من [١٩٤] إلى [٢٠٢]، مع ذكره في كتابه الأخير (ما ولي المنادَى) في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا...﴾.

رابعًا: ﴿..يَا أُولِي الأَلْبَابِ..﴾ [البقرة:١٧٩]:

و(الألباب) هنا: جمع لبٍّ، وهو العقل، واللُّبُّ من كلِّ شيءٍ: الخالصُ منه[١].

يعني: يا ذوي العقول. أي: يا ذوى العقول الخالصة عن شوب الأوهام. خوطبوا بذلك بعد ما خوطبوا بعنوان الإيمان تنشيطًا لهم إلى التَّأمُّل...[٢].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٤].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٤].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:١٧٩، ١٩٧]، [المائدة:١٠٠]، [الطَّلاق:١٠].

خامسًا: ﴿..يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..﴾ [آل عمران:٦٤]:

١ - بيان المعنى:

أي: من اليهود والنَّصارى، وهو كثير، وقد جاءت الصِّيغة نصًّا صريحًا في إرادة كلٍّ منهما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

أقول: وقد يراد به واحد منهما، وذلك بحسب القرائن كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء:١٧١]. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ تجريدٌ للخطاب وتخصيصٌ له بالنَّصارى زجرًا لهم عمَّا هم عليه من الكفر

(١) انظر: مفردات القرآن، مادَّة: (لب) (ص:٧٣٣)، لسان العرب، مادَّة: (لبب) (٧٢٩/١)، الكليَّات (ص:٧٩٨)، التَّعاريف (ص:٦١٧).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (١٩٦/١)، روح المعاني (٥٢/٢).

والضَّلال، ﴿لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ﴾ بالإفراط في رفع شأنِ عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وادِّعاءِ ألوهيَّته، وأمَّا غلوُّ اليهودِ في حطِّ رتبَته عَلَيْهِ السَّلَامُ ورميهم له بأنَّه وُلد لغير رَشْدةٍ فقد نعى عليهم ذلك فيما سبق(١).

وكذلك ما جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]. المراد بأهل الكتاب هنا: النَّصارى؛ لأنهم هم الذين اتخذوا المخلوق ربًّا وعبدوه مع الله عَزَّوَجَلَّ(٢). وقد أريد بالذين (أوتوا الكتاب) -في هذه الصِّيغة المشابهة للصِّيغة التي نحن بصددها- اليهود في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا﴾ [النِّساء:٤٧].

٢ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أقبل على خطاب أهل الكتاب بعد أن ذكر من عجائب ضلالهم، وإقامة الحجَّة عليهم، ما فيه وازع لهم لو كان بهم وَزْع(٣)، وكذلك شأن القرآن أن لا يفلت فرصة تَعِنُّ من فُرَص الموعظة والهدى إلا انتهزها، وكذلك شأن النَّاصحين من الحكماء والخطباء أن يتوسَّموا أحوالَ تأثُّر نفوس المخاطَبين، ومظانَّ ارعوائها عن الباطل، وتبصُّرها في الحقِّ، فينجدوها حينئذٍ بقوارع الموعظة والإرشاد(٤).

وسيأتي مزيد من البيان عند ذكر الصِّيغة.

أمَّا وصفهم بـ: (أهل الكتاب) فقد وُصفوا بأهليَّة الكتاب؛ تمهيدًا لما سيأتي من تبكيتهم وإلزامهم بكفرهم بكتابهم(٥).

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢/٢٥٩)، روح المعاني (٦/٢٤).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣/٢٦٨).

(٣) "وزعته أزعه وزعًا: كففته، فاتزع هو، أي: كف. وأوزعته بالشَّيء: أغريته به، فأوزع به، فهو موزع به، أي: مغرى به" الصِّحاح، مادة: (وزع) (٣/١٢٩٧).

(٤) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٥/٧٨).

(٥) انظر: تفسير أبي السُّعود (٣/٥٤)، روح المعاني (٦/١٧٢).

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[آل عمران:٦٤ – ٦٥ – ٧٠ – ٧١ – ٩٨ – ٩٩]، [النِّساء:١٧١]، [المائدة:١٥ – ١٩ – ٥٩ – ٦٨ – ٧٧].

سادسًا: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ..﴾ [النساء:٤٧]:

١ – بيان المعنى:

وقد جاءت هذه الصِّيغة في آية واحدة في (خطاب اليهود)[(١)] في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾ [النساء:٤٧].

٢ – ما يستفاد ممَّا ولي المنادَى:

"يتَّجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب، [وهم هنا] اليهود دعوة إلى الكتاب المصدِّق لما بين أيديهم، وتهديدًا لهم بالمسخ واللَّعن المتوقَّعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم. ودمغًا لهم بالشِّرك والانحراف عن التَّوحيد الخالص، الذي عليه دينهم، والله عَزَّوَجَلَّ لا يغفر أن يشرك به. وفي الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة، وبشاعة الشِّرك حتى إنَّه ليخرج من هذه الحدود. إنَّه نداء لهم بالصِّفة التي كان من شأنها أن يكونوا أوَّل المستجيبين، وبالسَّبب الذي كان من شأنه أن يكونوا أوَّل المسلمين، فهم أوتوا الكتاب،

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٨/٤٤٠)، روح المعاني (٥/٤٩)، ابن كثير (٢/٣٢٤)، الدُّر المنثور (٢/٥٥٥)، لباب النقول (١/٧٠)، الثَّعالبي (١/٣٧٩)، البغوي (١/٦٤١)، زاد المسير (١/٤١٧)، التَّحرير والتَّنوير (٥/٧٨)، الكشف والبيان (٣/٣٢٣)، تفسير مقاتل بن سليمان (١/٢٣٢).

فليس غريبًا عليهم هذا الهدى. والله عَزَّوَجَلَّ الذي آتاهم الكتاب هو الذي يدعوهم إلى الإيمان بما أنزل مصدِّقًا لما معهم، فليس غريبًا عليهم ذلك، وهو مصدِّق لما معهم. ولو كان الإيمان بالبيِّنة، أو بالأسباب الظَّاهرة، لآمنت يهود أوَّل من آمن، ولكن يهود كانت لها مصالح ومطامح، وكانت لها أحقادٌ وعناد، ومن ثمَّ لم تؤمن، ومن ثمَّ يجيئها التَّهديد العنيف القاسي.."[1].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [النِّساء:٤٧].

ولكن ينبغي أن يلاحظ فيه ما جاء في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، هذا من جانب، ومن جانب آخر أنَّ هذه الصِّيغة -أعني: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾- لها ذكرٌ من غير ذِكْرِ صيغة النِّداء (يا) في مواضع متعدِّدة، فعدد الآيات التي وردت فيها هذه الصِّيغة مجرَّدة عن النِّداء في [١٧] موضعًا[2]، وليستْ هنا بصدد بيان إلا ما جاء مسبوقًا منها بـ: (يا).

سابعًا: ﴿...يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾ [الأنعام:١٢٨]:

١ - بيان المعنى:

النِّداء هنا نداء مضاف -وسيأتي بيانه- و(المعشر): الجماعة الذين أمرهم وشأنهم واحد[3]، بحيث تجمعهم صفة أو عمل، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

---

(١) بقليل من التصرف عن (الظِّلال) (٥/٦٧٦-٦٧٧).

(٢) انظر الآيات التَّالية: [البقرة:١٠١، ١٤٤، ١٤٥]، [آل عمران:١٩، ٢٠، ١٠٠، ١٨٦، ١٨٧]، [النساء:١٣١]، [المائدة: مرتين في الآية: ٥، ٥٧]، [التَّوبة:٢٩]، [الحديد:١٦]، [المدَّثر: مرَّتين في الآية:٣١]، [البيِّنة:٤]. أمَّا ما كان مسبوقًا بالنِّداء فقد جاء في [النِّساء:٤٧] -كما سبق-.

(٣) وفي (تاج العروس): يقال: المعْشَر كمسكن: الجماعة، وقيَّده بعضهم بأنَّه الجماعة العظيمة، سمِّيت لبلوغها غاية الكثرة؛ لأنَّ (العشرة) هو العدد الكامل الكثير الذي لا عدد بعده إلا وهو مُرَكَّبٌ ممَّا فيه من الآحاد كأحَدَ عَشَرَ، وكذا عشرون وثلاثون، أي: عَشَرَتان وثلاثة، المعْشَرَ محَل العَشَرة الذي هو الكَثْرَة الكاملة.=

وهو يُجمع على: (معاشر) أيضًا، وهو بمعناه، وهو مشتقٌّ من المعاشرة والمخالطة.

والأكثر أن يضاف (المعشر) إلى اسم يبيِّن الصِّفة التي اجتمع مسمَّاه فيها، وهي هنا صفة كونهم جِنًّا؛ ولذلك إذا عُطف على ما يضاف إليه كان على تقدير تثنية معشرًا وجمْعِه، فالتَّثنية نحو: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا﴾ [الرحمن:٣٣]، أي: يا معشر الجنِّ ويا معشر الإنس، والجمع نحو قولك: (يا معاشر العرب والعجم والبربر)"[1].

٢ - ما يستفاد ممَّا ولي المنادَى:

والجنُّ مأمورون ومنهيُّون كالإنس، وقد بعث الله عَزَّوَجَلَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ من الإنس إليهم وإلى الإنس وأمر الجميع بطاعة الرُّسل عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ...[2].

قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:١٣٠].

الرُّسل من الإنس خاصَّة لكن لما جمعوا مع الجنِّ في الخطاب صحَّ ذلك[1].

=وقيل: المعْشَرُ: أهل الرَّجُل. وقال الأزهريُّ رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ [تهذيب اللغة، للأزهريِّ، مادَّة: (عشر) (٢٦٢/١)، وكذلك مادَّة: (طهر) (١٠١/٦)]: المعْشَر والنَّفَر والقَوْم والرَّهْط: معناه الجمع، لا واحد لهم من لفظهم، للرجال دون النساء، والعشيرة أيضًا للرجال، والعالم أيضًا للرِّجال دون النساء. وقال الليث رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: المعْشَر: كل جماعة أمْرُهم واحد، نحو: معشر المسلمين، ومعشر المشركين. والجمع المعاشر. وقيل: المعشر: الجن والإنس، وفي التَّنزيل: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالأِنْسِ﴾ [الأنعام:١٣٠]. قال شيخنا -[لعله يقصد أبا عبد الله محمد بن الطيب بن محمد الفاسي، المتولد بفاس سنة [١١١٠]، والمتوفى بالمدينة المنورة سنة [١١٧٠] حيث قال: وهو عُمدتي في هذا الفنِّ. تاج العروس (٣/١)]-: ولكن الإضافة تقتضي المغايرة، وفيه أن التَّقدير: يا مَعْشَرًا هم الجنُّ والإنس، فتأمل. تاج العروس، مادَّة: (عشر) (٥٣/١٣- ٥٤)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (عشر) (٥٦٨/٤)، تهذيب اللُّغة، من (٢٥٩/١) إلى (٢٦٢/١)، المعجم الوسيط (٩٠٢/٢).

(١) التَّحرير والتَّنوير (٦٧/٨).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧٩/١٣)، دقائق التَّفسير (١٣٥/٢).

وفي إرسال الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إقامة للحجَّة عليهم، وهذا أيضًا مما يستفاد من الآية.

وفي (البرهان): "المراد: (الإنس)؛ لأنَّ الرُّسل لا تكون إلا من بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وحكى بعضهم فيه الإجماع، لكن عن الضَّحاك[٢]: إنَّ من الجن رسولًا اسمه (يوسف)؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤].

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويمكن أن يحتج الضحاك بوجه آخر وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]. قال المفسرون: السبب فيه أن استئناس الإنسان بالإنسان أكمل من استئناسه بالملك، فوجب في حكمة الله تعالى أن يجعل رسول الإنس من الإنس؛ ليكمل هذا الاستئناس. إذا ثبت هذا المعنى، فهذا السبب حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن.

أما القول الثاني: وهو قول الأكثرين: (أنه ما كان من الجن رسول البتة، وإنما كان الرسل من الإنس) فما رأيت في تقرير هذا القول حجة إلا ادعاء الإجماع، وهو بعيد؛ لأنه كيف ينعقد الإجماع مع حصول الاختلاف. ويمكن أن يستدل فيه بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، الدر المنثور (٣/٣٦٠)، تفسير البيضاوي (٢/١٨٢)، الكشاف (٢/٥١)، تفسير ابن جزي (٢/٢١)، تفسير أبي السُّعود (٣/١٨٥)، تفسير السَّمرقندي (١/٤٨٣)، السَّمعاني (٥/٣٢٣)، النَّسفي (١/٥٣٧)، أحكام القرآن، للطَّحاويّ (٢/٢٩٢)، الكشف والبيان (٤/١٩١)، البغوي (٤/٣٣٤)، زاد المسير (٢/٧٨)، فتح القدير (٢/١٨٥)، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم (٤/ ١٣٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، تفسير الرازي (١٣/١٥٠)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧)، النكت والعيون (٢/١٧٠)، السمعاني (٢/ ١٤٥)، غرائب التفسير وعجائب التأويل، للكرماني (١/٣٨٦). ولم يذكر هذا القول (الدُّكتور محمَّد شكري أحمد..) الذي جمع أقوال الضَّحاك في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾، وكذلك في تفسير: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾. انظر: تفسير الضَّحاك (١/٣٥٢–٣٥٣)، (٢/٦٩١). وإنما ذكر قول الضَّحاك الذي سيأتي، وهو زعمه أنَّ في الجنِّ رسلًا..

عمران:٣٣]. وأجمعوا على أن المراد بهذا الاصطفاء إنما هو النبوة، فوجب كون النبوة مخصوصة بهؤلاء القوم فقط.."[١]. ثم أورد اعتراضات على ما تمسك به الضحاك.

قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واحتجَّ الجمهور بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام:٩]؛ ليحصل الاستئناس، وذلك مفقود في الجن"[٢]. ويرد على هذا القول ما حققه الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من كون ذلك حاصل في الجن، فوجب أن يكون رسول الجن من الجن، وهو أقرب.

واحتج الجمهور كذلك بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا...﴾ الآية [آل عمران:٣٣]. قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أجمعوا أنَّ المراد بالاصطفاء: النُّبوة. وأجيب عن تمسُّك الضَّحاك بالآية بأنَّ البعضيَّة صادقةٌ بكون الرُّسل من بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولا يلزم إثبات رسل من الجنِّ بطريق إثبات نفرٍ من الجنِّ يستمعون القرآن من رسل الإنس، ويبلِّغونه إلى قومهم وينذرونهم، ويصدق على أولئك النَّفر من حيث إنهم رسل الرُّسل، وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ رسل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بذلك حيث قال: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس:١٤]"[٣]. ويرد على دعوى الإجماع كذلك ما حققه الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره.

وقيل: قوم من الجنِّ رسل للآية[٤]، ويرد عليه ما سبق.

وقد نصَّ غير واحد من أئمَّة السَّلف والخلف على الاتِّفاق على أنَّه ليس من الجنِّ رسل.. فقد قال الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نصَّ على ذلك مجاهدُ وابنُ جريج وغيرُ واحد من الأئمَّة من السَّلف والخلف. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الرُّسل من بني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومن الجنِّ نذر، وحكى ابن جرير عن الضَّحاك بن مزاحم أنَّه زعم أنَّ في الجنِّ رسلًا،

---

(١) تفسير الرازي (١٣/١٥١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٣٧)، وانظر: روح المعاني (٧/٢١٥).

(٤) انظر: تفسير البيضاوي (٢/٤٥٣)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

واحتجَّ بهذه الآية الكريمة، وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة. وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابنُ جرير[1].

والدَّليل على أنَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إنَّما هم من الإنس قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ..﴾، إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقوله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت:٢٧]، فحصر النُّبوَّة والكتاب بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في ذرِّيته، ولم يقل أحد من النَّاس أنَّ النُّبوة كانت من الجنِّ قبل إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثمَّ انقطعت عنهم ببعثته.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إلا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:٢٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إلا رِجَالا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف:١٠٩]، ومعلوم أنَّ الجنَّ تبعٌ للإنس في هذا الباب.."[2]. إلى آخر ما ذكره الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ من الأدلَّة.

وقد حقَّق ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ذلك أيضًا عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، حيث قال: "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ يخصُّ قريشًا والعرب، ثمَّ يعمُّ سائر البشر؛ لأنَّ القرآن خطاب لهم، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أنفسهم، والمعنى ليس بملَكٍ لا يطيقون الأخذ منه، ولا جني، ثمَّ يعمُّ الجنَّ؛ لأنَّ الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى الإنس والجنِّ، والقرآن خطاب للثَّقلين، والرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منهم جميعًا كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]، فجعل الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ التي أرسلها من النَّوعين مع أنهم من الإنس؛ فإنَّ الإنس والجنَّ مشتركون مع كونهم أحياء ناطقين مأمورين منهيين؛ فإنهم يأكلون ويشربون وينكحون وينسلون ويغتذون وينمون

---

(١) انظر: تفسير الطَّبري (١٢/١٢١)، وانظر: تفسير الضَّحاك (١/٣٥٢-٣٥٣).

(٢) تفسير الحافظ ابن كثير (٣/٣٤٠)، وانظر: الدُّر المنثور (٣/٣٥٩)، روح المعاني (٨/٢٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

بالأكل والشُّرب، وهذه الأمور مشتركة بينهم، وهم يتميَّزون بها عن الملائكة؛ فإنَّ الملائكة لا تأكل ولا تشرب ولا تنكح ولا تنسل، فصار الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من أنفس الثَّقلين باعتبار القدر المشترك بينهم الذي تميَّزوا به عن الملائكة حتى كان الرَّسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مبعوثًا إلى الثَّقلين دون الملائكة.."[1].

٣ - النَّتائج:

ومِمَّا سبق يتبيَّن:

أ. جاء نداء الجنِّ في الخطاب القرآني بهذه الصِّيغة، وقد بيَّنتُ ما جاء في معناها.

ب. إنَّ الجنَّ مأمورون ومنهيون كالأنس.

ج. الاتِّفاق على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بعث الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ من الإنس خاصّةً إلى الإنس والجنِّ معًا، فإنَّ مبلِّغ الخطاب الإلهي إنما هو من الإنس لكلٍّ من الإنس والجنِّ.

د. إقامةُ الحجَّة على الجنِّ، وذلك بإرسال الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ إليهم.

هـ. جاء الخطاب من الجنِّ بصيغة: ﴿يَا قَوْمَنَا﴾ [الأحقاف:٣٠] -وسيأتي بيان ذلك في موضعه- .

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة -﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ﴾- من غير عطف لفظ (الإنس) فهو: [١].

أمَّا مع العطف فسيأتي عقب ما جاء من غير عطف.

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: [الأنعام: ١٢٨].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩٢/١٦).

ثامنًا: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنّ وَالإِنْسِ..﴾ [الأنعام:١٣٠]:

سبقَ بيانُ معنى (معشر)، وهنا: (الخطاب إلى الاثنين).

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضا: [٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[الأنعام:١٣٠]، [الرَّحمن:٣٣].

تاسعًا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ..﴾ [الأعراف:٢٦]:

١ - ما يستفاد من النِّداء بهذه الصِّيغة، ومما ولي المنادَى:

وهنا مسائلُ مهمَّة لها صلة وثيقة بما لهذه الصِّيغة من الدِّلالة.

فمن ذلك ما ذكره الرَّازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)، حيث قال: "لا شكَّ أنَّ (اسم الولد) واقعٌ على (ولد الصُّلب) على سبيل الحقيقة، ولا شكَّ أنَّه مستعملٌ في (ولد الابن)، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، وقال للَّذين كانوا في زمان الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿يَا بَنِي إِسْرائيلَ﴾ [البقرة:٤٠]، إلا أنَّ البحث في أنَّ لفظَ (الولد) يقعُ على (ولد الابن) مجازًا أو حقيقة.

فان قلنا: إنَّه مجاز فنقول: ثبتَ في أصول الفقه أنَّ اللَّفظ الواحد لا يجوز أن يستعمل دفعةً واحدة في حقيقته وفي مجازه معًا[1]، فحينئذٍ يمتنعُ أن يريد الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ [النساء:١١] ولد الصُّلب وولد الابن معًا.

[قال]: واعلم أنَّ الطَّريق في دفع هذا الإشكال أن يقال: إنَّا لا نستفيد حكم (ولد الابن) من هذه الآية، بل من السُّنة ومن القياس، وأمَّا إن أردنا أن نستفيده من هذه الآية فنقول: الولد وولد الابن ما صارا مرادين من هذه الآية معًا؛ وذلك لأنَّ أولاد الابن لا يستحقُّون الميراث إلا في إحدى حالتين، إمَّا عند عدم ولد الصُّلب رأسًا، وإمَّا عندما لا يأخذ ولد الصُّلب كلَّ الميراث، فحينئذٍ يقتسمون الباقي. وأمَّا أن يستحقَّ (ولد الابن) مع (ولد الصُّلب) على وجه الشَّركة بينهم كما يستحقُّه أولاد الصُّلب بعضهم مع بعض فليس الأمر كذلك، وعلى هذا لا يلزم من دلالة هذه الآية على الولد وعلى ولد الابن أن يكون قد أريد باللَّفظ الواحد حقيقته ومجازه معًا؛ لأنَّه حين أريد به (ولد الصُّلب) ما أريد به (ولد الابن)، وحين أريد به (ولد الابن) ما أريد به ولد الصُّلب.

فالحاصل أنَّ هذه الآية تارة تكون خطابًا مع (ولد الصُّلب)، وأخرى مع (ولد الابن)، وفي كلِّ واحدةٍ من هاتين الحالتين يكون المراد به شيئًا واحدًا. أمَّا إذا قلنا: إن وقوع اسم الولد على (ولد الصُّلب) وعلى (ولد الابن) يكون حقيقة، فإن جعلنا اللَّفظ مشتركًا بينهما عاد الإشكال؛ لأنَّه ثبت أنَّه لا يجوز استعمال اللَّفظ المشترك لإفادة

---

(١) أي: يكون اللَّفظ هنا حقيقة في (الابن) مجاز في (ابن الابن) على الرأي الأوَّل، وهو رأيُ الرَّازي من لفَّ لفَّه. والرَّأي الآخر أنَّهُ يجوز استعمال اللفظ الواحد في حقيقته ومجازه معًا. انظر: تفسير ابن عادل (٢٧٣/٦)، تفسير ابن عرفة (٣٣١/١، ٣٥٦)، نظم الدرر (٤٠٠/٢)، تفسير الرَّازي (٥١٢/٩)، (٢٤/١٠)، إحكام الأحكام، لابن دقيق العيد (٢٢/١)، تحفة الأحوذي (٥٠٤/٥)، شرح الزُّرقاني على الموطَّأ (٢٦١/٢)، شرح النَّووي لصحيح مسلم (٢٠٢/١٣)، فتح الباري (٣٩/١٠)، (٤٩/١٠)، (٣٦٦/١١)، الخرشي على مختصر خليل (١٩٩/٧)، منح الجليل (٢٢٣/٥)، البحر الرَّائق (٥٥/٤)، الإبهاج (٢٥٩/١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٥٠٩/١)، الأشباه والنَّظائر، لتاج الدِّين السُّبكي (٣٧٥/١)، الفروق (١٨١/١)، القواعد، لابن رجب (ص:٣٥٣)، شرح الكوكب المنير (١٥٩/٣)، غمز عيون البصائر (١٢٨/٤)..الخ.

معنييه معًا[1]، بل الواجب أن يجعله متواطئًا[2] فيهما كالحيوان بالنِّسبة إلى الإنسان والفرس.

---

(١) والحاصل أنَّ منهم من يجوِّز إعمال المشترك في معنييه، (يجيز أن يراد المعنيان جميعًا)، ومنهم من يعدُّ ذلك خطبًا عظيمًا. والتَّحقيق جواز حمل المشترك على معنييه، كما حقَّقه الشَّيخ تقيُّ الدِّين أبو العباس ابنُ تيمية في (رسالته في أصول التَّفسير)، وحرَّر أنَّه هو الصَّحيح في مذاهب الأئمَّة الأربعة -رحمهم الله-، وكثير من أهل الكلام. مقدِّمة في أصول التَّفسير، لابن تيميه (١٢/٢)، وانظر: المسودة (ص:٣٤)، انظر: أضواء البيان (٣٣٦/١)، نظم الدُّرر (٦٦٣/٢)، المنار (١٠٦/٣)، (٢٨٥/٤)، (١٥١/٦)، (٨٠٩/٧)، (١٨٢/٨)، (٢٩٤/٩)، الإبهاج (٢٥٧/١، ٢٥٩، ٢٦٦، ٢٦٨)، التَّمهيد، للإسنوي (ص:١٨١)، حاشية العطار (٥٠٧/١)، نهاية السُّول (٢٣٨/١)، الفتاوى الكبرى الفقهيَّة، لابن حجر الهيتمي (٣٢/١)، (٣٠٤/٣)....الخ.

(٢) (المشترك) هو اللَّفظة الموضوعةُ لحقيقتين مختلفتين أو أكثر، وضعا أوَّلًا من حيث هما كذلك. فخرج بـ: (الوضع): ما يدلُّ على الشَّيء بالحقيقة، وعلى غيره بالمجاز، وخرج بقيد: (أوَّلًا) المنقول، وخرج بقيد (الحيثيَّة): المتواطئ فإنَّه يتناول الماهيَّات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنَّها مشتركة في معنى واحد. إرشاد الفحول (٥٧/١)، المحصول (٣٥٩/١-٣٦١)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (٦٠/١). قال الأخضري في (السُّلَّم):

(ونسبة الألفاظ للمعاني***خمسة أقسام بلا نقصان)

(تواطؤ تشاكك تخالف***والاشتراك عكسه التَّرادف).

قوله: (تواطؤ)..وهو القسم الأوَّل من الخمسة كالإنسان؛ فإنَّ معناه لا يختلفُ في أفراده، ويسمَّى ذلك المعنى متواطئا لتواطئ أفراده، أي: توافقها فيه؛ فإنَّ أفراد الإنسان كلَّها متوافقةٌ في معناه من الحيوانيّة والنَّاطقيّة، وإنَّما الاختلافُ بينهما بعوارضٍ خارجةٍ كالبياض والسَّواد والطُّول والقصر. فإن كان معناه مختلفًا في أفراده كالنُّور؛ فإنَّ معناه في الشَّمس أقوى منه في القمر. وكالبياض؛ فإنَّ معناه في العاج أقوى منه في الثَّوب، فالنِّسبة بينه وبين أفراده تشاككٌ. ويقال للمعنى مشكك؛ لأنَّ النَّاظر إذا نظر في الأفراد باعتبار أصل المعنى ظنَّه متواطئًا، وإذا نظر باعتبار التَّفاوت ظنَّه مشتركًا فحصل له التَّشكك. ويسمَّى اللَّفظ متواطئا كمعناه، وفي الثَّاني مشككًا كمعناه. وإذا نظر بين معنى اللَّفظ وبين لفظ آخر فإن لم يصدق أحدهما على شيءٍ مما يصدقُ عليه الآخر، فالنِّسبة بينهما تخالف، أي: تباين، كالإنسان والفرس..واللَّفظ إن تعدد معناه كعين الباصرة والجارية فالنِّسبة بينه وبين ما له من المعاني الاشتراك؛ لاشتراك المعنيين في اللَّفظ الواحد. وإن تعدَّد المعنى كالإنسان والبشر فالنِّسبة بين اللَّفظين التَّرادف..انظر: (شرح الشَّيخ درويش القويسني على السُّلَّم المنورق) (ص:١٧).

والذي يدلُّ على صحَّة ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وحلائل أَبْنَائِكُمُ الذين مِنْ أصلابكم﴾ [النساء:٢٣]. أجمعوا أنَّه يدخل فيه ابن الصُّلب وأولاد الابن، فعلمنا أنَّ لفظ (الابن) متواطئٌ بالنِّسبة إلى ولد الصلب وولد الابن، وعلى هذا التَّقدير يزول الإشكال.

[قال]: اعلم أنَّ هذا البحث الذي ذكرناه في أنَّ (الابن) هل يتناول (أولاد الابن) قائم في أنَّ لفظ الأب والأم هل يتناول الأجداد والجدَّات؟ ولا شكَّ أن ذلك واقع بدليل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:١٣٣].

والأظهر أنَّه ليس على سبيل الحقيقة؛ فإن الصَّحابة اتفقوا على أنَّه ليس للجدِّ حكمٌ مذكور في القرآن، ولو كان اسم الأب يتناول الجَدَّ على سبيل الحقيقة لما صحَّ ذلك والله أعلم"[(١)].

وفي (الكليَّات) "المعنى الحقيقي للابن هو الصُّلبي، كذا للولد منفردًا وجمعًا، لكن في العرف اسم الولد حقيقة في ولد الصُّلب. واستعمال الابن والولد في (ابن الابن) مجاز؛ ولهذا صحَّ أن يقال: (إنَّه ليس ولدي، بل ولد ابني)، و(ليس ابني، بل ابن ابني) فلا بد من قرينةٍ صارفةٍ عن إرادة المعنى الحقيقي إذا استعملا في (ابن الابن) أو في معنى شاملٍ له كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فإنَّ عدم كون أحد من ولد آدم من صلبه موجودًا عند ورود الخطاب قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي[(٢)]، فيكون المراد أبناء الأبناء فقط، لا معنى شاملا للابن الصُّلبي وابن الابن، وهذا لا يدلُّ على صحَّة استعمال لفظ الولد في المعنى الشَّامل للأولاد الصُّلبيَّة وأولاد الأبناء. [ثمَّ قال:] والحقُّ أنَّ إطلاق (الابن) على (ابن الابن) لا يستلزم إطلاق (الولد) على (ابن الابن) قطعًا؛ فإنَّ حكم لفظ (الابن) مغاير لحكم لفظ (الولد) في أكثر المواضع، وتناول لفظ الابن لابن الابن إنما يدل على تناول الولد لابن الابن أن لو كان لفظ الولد مرادفًا للفظ الابن أو كان الابن

---

(١) تفسير الرَّازي (٥١٣/٩)، تفسير ابن عادل (٢١٣/٦).

(٢) وقد بيَّنتُ ذلك في (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية).

أخصُّ مطلقًا من الولد، وكلاهما ممنوع؛ لأنَّ الأولاد [لا][1] تطلق عرفًا على أولاد الأبناء، بخلاف الأبناء فإنها تطلق عليها[2] بدليل دخول الحفدة في المستأمن على أبنائه[3]، فبينهما عموم وخصوص وجهي[4]. فلا يلزم من تناول لفظ الابن له تناول لفظ الولد له أيضًا، ولا يطلق الابن إلا على الذَّكر بخلاف الولد"[5].

٢ – النَّتائج:

أ. إنَّ إطلاق اسم الولد أو الابن واقع على ولد الصُّلب على سبيل الحقيقة.

ب. لا شكَّ أنَّ الصِّيغة التي معنا تتناول ابن الابن، ولكن هل يستفاد ذلك من المجاز أم من الحقيقة؟ وإذا كان من المجاز هل يلزم منه استخدام اللَّفظ الواحد في حقيقته ومجازه معًا؟ أم أنَّ يستفاد ذلك من السُّنة والقياس والإجماع؟

ج. دخول (ابن الابن) في الخطاب عند وروده ليس على سبيل الحقيقة خلافًا للحنابلة كما حقَّقتُ ذلك (في خطاب المعدوم) فأغنى عن ذكره هنا.

د. الجمهور على أنَّه من المجاز، ويكون من باب التَّغليب، وهو مجاز لا حقيقة؛ فإنَّه ليس إلا التَّجريد البياني –كما سبق–.

---

(١) يوجد هنا سقط [لا]، ولا يتمُّ المعنى بدونه، وهو في النُّسخة المتداولة، والتي قد اعتمدت هنا. مع ملاحظة أنَّ الحقيقة العرفيَّة قد تختلف باختلاف الزَّمان والمكان. ينظر: (التلويح على التوضيح) (١/١٦٧).

(٢) أي: تطلق عليها مجازًا للقرينة الصَّارفة، وقد بينتُ ذلك مفصلًا في (أساليب الخطاب في القرآن الكريم) في (المبحث التاسع) (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية، وبيان المقصود من الخطاب الشَّفاهي)، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر [١٤٣٦هـ]، من (١/٦٣٦) إلى (١/٦٤٦).

(٣) أي: مع بنيه في الأمان مع أن الأبناء حقيقة في الصُّلبيين مجاز في الحفدة.

(٤) العموم والخصوص الوجهي أن يجتمعا في شيءٍ وينفرد كلٌّ منهما في شيء كالنِّسبة بين الحيوان والأبيض. وفي الصِّيغة التي معنا قد اجتمعا –أي: الولد والابن– في الابن، وانفرد الولد في شموله للأنثى، وانفرد الابن في شموله لابن الابن.

(٥) الكليَّات (ص:٢٧)، وانظر: التقرير والتحبير (٢/٣٤).

هـ. وعلى اعتبار أنَّه من الحقيقة فإنَّ الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يرى أنَّه من المتواطئ، وليس من استخدام المشترك لإفادة معنييه معًا. ويرى الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ حمل اللَّفظ على كلا الحالين (الموجود والمعدوم) يكون من المتواطئ، ويرى أنَّ الحمل على الحقيقة إن أمكن أولى من الحمل على المجاز..، وقد ذكر أنَّ اعتبار المجاز يقتضي حمل اللَّفظ على حقيقته ومجازه في آنٍ واحد فيكون حقيقة في (الابن)، مجاز في (ابن الابن)، فيكون المخرج عنده أن نجعله من المتواطئ، وهو يتناول الماهيَّات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنها مشتركة في معنى واحد. كالإنسان فإنَّ معناه لا يختلف في أفراده، ويسمَّى ذلك المعنى متواطئًا لتواطئ أفراده، أي: توافقها فيه، فإنَّ أفراد الإنسان كلُّها متوافقة في معناه من الحيوانيَّة والنَّاطقيَّة، وإنما الاختلاف بينهما بعوارض خارجة كالبياض والسَّواد والطُّول والقصر.

ولكن التَّواطؤ قد يدلُّ على ماهيَّاتٍ مختلفة وإن اتَّفقت في الأصل مثل: الإنسان والفرس أصلهما (حيوان) بينما موضوعهما حقائق مختلفة. أمَّا موضوعنا هنا فهو في حقائق غير مختلفة – إلا من حيث الوجود والعدم– وهي الإنسان المكلَّف..، والاعتبارات الأخرى لا محلَّ لها هنا.

وما ذكره من المحظور في استخدام المجاز حيث إنَّه يؤدي إلى استخدامِ اللَّفظ في حقيقته ومجازه في آن واحد –على ما فيه من الخلاف– قد دفعناه من حيث استخدامه في مجازه فحسب على اعتبار التَّغليب، وهو أمرٌ شائعٌ.

و. أرى أنَّ الرَّاجح هو قول الجمهور باعتبار المجاز لكن على أنَّه من باب التَّغليب، وهو سائغٌ ومعروفٌ عند العرب كما بيَّنتُ ذلك من قبل.

ز. لا شكَّ أنَّ من يقول بالحقيقة أو من يقول بالمجاز لا يرفضون الأدلَّة الأخرى من السُّنة والقياس والإجماع.

ح. ثمَّة فرقٌ بين الولد والابن فيجتمعان ويفترقان..

ط. بيان أحكام أخرى تترتَّب على ذلك.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٥].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٥].

وهي على النَّحو الآتي:

[الأعراف:٢٦ – ٢٧ – ٣١ – ٣٥]، [يس:٦٠].

عاشرًا: ﴿.. يَا قَوْمِ...﴾ [البقرة:٥٤]:

أمَّا إذا أضيف المنادَى إلى النَّفس ففي ذلك أقاويل ذكرها المبرّد[١] في (المقتضب)، وذكر أنَّ من أجودها حذف الياء، وذلك كقولك: (يا غلام أقبل)، و(يا قوم لا تفعلوا). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [هود:٥١]، وقال: ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

وكذلك كلُّ ما كان في القرآن من ذا[٢]. كقوله: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ﴾ [نوح:٢٦]. وإنما كان حذفها الوجه؛ لأنها زيادة في الاسم غير منفصلة منه معاقبة للتَّنوين حالَّة في محلِّه، فكان حذفها ها هنا كحذف التَّنوين من قولك: (يا زيد)، و(يا عمرو)، وكانت أحرى بذلك، إذ كانت تذهب في الموضع الذي يثبت فيه التَّنوين. وذلك إذا التقى ساكنان وهي أحدهما. تقول: (جاءني غلامي العاقل)، و(جاءني زيد العاقل)، فتحرَّك التَّنوين؛ لالتقاء السَّاكنين، وتحذف الياء؛ لالتقاء السَّاكنين، ومع ذا فإنَّ الياء

---

(١) المبرد هو محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرّد، إمام العربيَّة (ببغداد) في زمنه، وأحد أئمَّة الأدب والأخبار. مولده (بالبصرة) ووفاته (ببغداد). من كتبه: (الكامل) و(المقتضب)...[٢٨٦هـ]. انظر: الأعلام (١٤٤/٧)، سير أعلام النُّبلاء (٥٧٦/١٣)، الأنساب (٥١٣/١)، بغية الوعاة (٢٦٩/١)، طبقات المفسِّرين، للأدنروي (ص:٤١)، معجم المؤلفين (١١٤/١٢)، الوافي بالوفيَّات (١٦٩/٢)، تاريخ الإسلام (٢٩٩/٢١)، شذرات الذَّهب (١٩٠/٢)، وفيات الأعيان (٣١٣/٤).

(٢) أي: من ذلك القبيل.

والكسرة تستثقلان، والكسرة تدلُّ على الياء، إذا حذفتها دلت عليها كسرتها، وأوضحت لك المعنى. فهذا القول المختار[1].

وإنَّ افتتاح الخطاب بنحو: ﴿يَا قَوْمِ﴾ إيذانٌ بأهميَّة ما سيلقى إليهم؛ لأنَّ النِّداء طلب الإقبال. ولما كان هنا ليس لطلب إقبال قومه إليه، لكن النِّداء مستعملٌ في طلب الإقبال المجازي، وهو توجيه أذهانهم إلى فهم ما سيقوله. واختيار التَّعبير عنهم بوصف كونهم قومه تحبيب لهم في نفسه ليأخذوا قوله مأخذ قول النَّاصح المتطلِّب الخيرَ لهم؛ لأنَّ المرء لا يريد لقومه إلا خيرًا. وحذفت ياء المتكلم من المنادى المضاف إليها على الاستعمال المشهور في (نداء المضاف إلى ياء المتكلِّم)[2].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٣٨].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٣٨].

وهي على النَّحو الآتي:

[البقرة:٥٤]، [المائدة:٢٠ – ٢١]، [الأنعام:٧٨ – ١٣٥]، [الأعراف:٥٩ – ٦١ – ٦٥ – ٦٧ – ٧٣ – ٧٩ – ٨٥ – ٩٣]، [يونس:٨٤]، [هود:٢٨ – ٥٠ – ٥١ – ٦١

---

(١) المقتضب (٤/٢٤٥– ٢٤٦). وانظر: الأقوال الأخرى في (المقتضب)..، وانظر: الأصول في النَّحو، لابن السَّراج (١/٣٤٠)، الكليَّات (ص:١٠٣٢)، وانظر: باب إضافة المنادى إلى نفسك في (الكتاب) لسيبويه، بتحقيق: عبد السلام هارون (٢/٢٠٩). وقد جاء بيان ياءات الزَّوائد على الرَّسم في (النَّشر في القراءات العشر) حيث ذكر ابنُ الجزريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها تأتي في أواخر الكلم، وتنقسم على قسمين: أحدهما: ما حذف من آخر اسم منادى نحو: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ﴾ [الأعراف:٧٩]، ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ﴾ [يونس:٨٤]، ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ [العنكبوت:٥٦]، ﴿يَا أَبَتِ﴾ [يوسف:٤]، ﴿يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ [الزُّخرف:٨٨]، ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ﴾ [آل عمران:٣٥]، وهذا القسم مما لا خلاف في حذف الياء منه في الحالين، والياء من هذا القسم (ياء إضافة) كلمة برأسها استغني بالكسرة عنها، ولم يثبت في المصاحف من ذلك سوى موضعين بلا خلاف وهما: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:٥٦]، و﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزُّمر:٥٣]، وموضع بخلاف، وهو ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزخرف:٦٨]....والقُرَّاء مجمعون على حذف سائر ذلك إلا موضعًا اختص به (رويس)، وهو ﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزُّمر:١٦]". النَّشر في القراءات العشر (٢/١٧٩–١٨٠).

(٢) انظر: التَّحرير والتَّنوير (١١/٢٣٦).

– ٦٣ – ٧٨ – ٨٤ – ٨٨ – ٩٢]، [طـه:٨٦ – ٩٠]، [المؤمنـون:٢٣]، [النَّمـل:٤٦]، [العنكبوت:٣٦]، [يس:٢٠]، [الزُّمر:٣٩]، [غافر:٢٩ – ٣٠ – ٣٨ – ٣٩]، [الزُّخرف:٥١]، [الصَّف:٥]، [نوح:٢].

الحادي عشر: ﴿.. يَا أَيُّهَا الْمَلأُ...﴾ [يوسف:٤٣]:

(الملأ): الرُّؤساء سمُّوا بذلك؛ لأنهم مِلاءٌ بما يحتاج إليه، و(الملأ): –مهموز مقصور– الجماعة.

وقيل: أشراف القوم ووجوههم ورؤساؤهم ومقدَّموهم الذي يرجع إلى قولهم[(١)].

وقيل: سمُّوا بذلك؛ لملاءتهم بما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرَّأي؛ أو لأنهم يملئون العيون أبهة، والصُّدور هيبة، والجمع: (أملاء)، مثل: سبب وأسباب[(٢)].

وفي (تفسير أبي السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "خطابٌ للأشراف من العلماء والحكماء"[(٣)].

وفي (روح المعاني): "خطابٌ للأشراف ممن يُظنُّ به العلم"[(٤)].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٥].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٥].

وهي على النَّحو الآتي:

[يوسف:٤٣]، [النَّمل:٢٩ – ٣٢ – ٣٨]، [القصص:٣٨].

---

(١) انظر مادَّة: (ملأ) في (لسان العرب) (١/١٥٨)، تاج العروس (١/٤٣٧)، تهذيب اللغة (١٥/٢٩٠).

(٢) انظر مادَّة: (ملأ) في (المصباح المنير) (١/٢٩٩)، التَّوقيف على مهمَّات التَّعاريف، فصل اللام، مادَّة: (ملأ) (ص:٦٧٣).

(٣) انظر: تفسير أبي السُّعود (٤/٢٨٠)، وانظر: فتح القدير (٣/٣٧).

(٤) روح المعاني (١٢/٢٥٠).

الثاني عشر: ﴿..يَا عِبَادِ...﴾ [الزُّمر:١٠]...، ﴿يَا عِبَادِيَ..﴾ [العنكبوت:٥٦]:

والخطاب بهذه الصِّيغة يدلُّ على عبوديَّة الإنسان لله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ الإنسان قد خلق لأجل ذلك، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات:٥٦]، كما يدلُّ على العناية بأمر هذا المخلوق، وقد دلَّ على ذلك الإضافة إلى (ياء المتكلِّم)[1]..وكذلك النِّداء بـ: (يا) حيث سبق بيان ما فيه من الحكم الكثيرة، والتي يستفاد منها العناية بأمر المخلوق.

١ – ﴿يَا عِبَادِيَ﴾:

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضًا: [٢].

وهي على النَّحو الآتي:

[العنكبوت:٥٦]، [الزُّمر:٥٣].

٢ – ﴿يَا عِبَادِ﴾:

أمَّا عددُ الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٣].

أمَّا عددُ التَّكرار فهو أيضًا: [٣].

وهي على النَّحو الآتي:

[الزُّمر:١٠ – ١٦]، [الزُّخرف:٦٨].

وهذا بالنِّسبة لقراءة حفص عن عاصم، أمَّا بيان القراءات فقد قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ

(١) قد سبق بيان ما أضيف من المنادَى إلى النَّفس في صيغة الخطاب بـ: ﴿..يَا قَوْمِ..﴾.

فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦]. "قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابنُ عامر: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بتحريك الياء، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائيُّ بإسكانها"(١). قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:٥٣]: "قرأ أبو عمرو ويعقوب والجحدريُّ وابن محيصن والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ وخلف: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بإسكان الياء، وفتحها الباقون"(٢). وقال أيضًا: "قرأ الجمهور: ﴿يَا عِبَادِيَ﴾ بإثبات الياء وصلًا ووقفًا، وروى أبو بكر عن عاصم أنَّه يقف بغير ياء"(٣). وقال عند تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ﴾ [الزُّخرف:٦٨] "قرأ نافع وابنُ عامر وأبو عمرو: ﴿يا عبادى﴾ بإثبات الياء ساكنة وصلًا ووقفًا، وقرأ أبو بكر وزرٌّ بن حبيش بإثباتها وفتحها في الحالين، وقرأ الباقون بحذفها في الحالين"(٤).

وقد جاء توجيه هذه القراءات في (الحُجَّة): "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا﴾ [العنكبوت:٥٦]، ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ [الزمر:٥٣] يقرآن بإثبات الياء وحذفها، فالحجَّة لمن أثبت أنَّه أتى بالكلام على أصله؛ لأنَّ أصل كلِّ ياءٍ الإثبات، والفتح لالتقاء السَّاكنين، والحُجَّة لمن أسكنها وحذفها لفظًا أنَّه اجتزأ بالكسرة منها وحذفها؛ لأنَّ بناء النِّداء على الحذف، والاختيار لمن حرَّك الياء بالفتح أن يقف بالياء؛ لأنها ثابتة في السَّواد"(٥).

وجاء في موضع آخر في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا عِبَادِيَ الذينَ أَسْرَفُوا﴾ يقرأ بحذف الياء وإثباتها، فالحُجَّة لمن حذف أنَّه استعمل الحذف في النِّداء لكثرة دوره في الكلام، والحُجَّة لمن أثبت أنَّه أتى به على الأصل"(٦).

---

(١) زاد المسير (٤١٢/٣).

(٢) فتح القدير (٢٤٣/٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٥٨/١٣).

(٣) فتح القدير (٥٣٩/٤).

(٤) المصدر السابق (٦٤٥/٤).

(٥) الحُجَّة في القراءات السَّبع (٢٨١/١).

(٦) المصدر السابق (٣١٠/١).

والحاصل أنَّ في هذه الصِّيغة ما يدلُّ على أنَّ الإنسان مخلوق لله عَزَّوَجَلَّ قد أُمِر بعبادته حتَّى يتحقَّق فيه معنى التَّكليف المتفرِّع عن العبوديَّة..، وفيها ما يدلُّ على العناية بأمر هذا المخلوق –كما أسلفتُ– من دلالة الإضافة إلى (ياء المتكلِّم)، والنِّداء بـ: (يا)..وقد كرَّمَ الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان، وأنعم عليه بالنِّعم الكثيرة، وكلَّفه إلى حين، فإذا مات استراح من التَّكليف، وانقلب إلى ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ له من النَّعيم الدَّائم في دار الخلد والكرامة.

وإذا جحد وخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ فقد بيَّن له العاقبة والمآل..، والله عَزَّوَجَلَّ رحيمٌ بعباده يغفرُ لهم الذُّنوب، ويضاعفُ لهم الأجور..

ويجمع بين البشر العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، والبنوَّةُ لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وجميع النَّاس متساوون في أصل الكرامة الإنسانيَّة، وفي أصل التَّكليف والمسؤوليَّة، دون تمييز بينهم بسبب العرق أو اللَّون أو اللُّغة أو الجنس أو الوضع الاجتماعيِّ أو غير ذلك من الاعتبارات. وإنَّ العقيدة الصَّحيحة هي الضَّمان لنمو هذه الكرامة على طريق تكامل الإنسان..

وفي الآيات أيضًا إيماءٌ إلى بُعد درجة العبوديَّة عن مرتبة الألوهيَّة. فينبغي على المكلَّف أن يكون على بصيرة إلى ما بين خصائص الألوهيَّة وخصائص العبوديَّة من البون الشَّاسع، وأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد مدَّ لهذا المخلوق جسور الأمل فكان قريبًا منه...

وفي هذه الآيات أيضًا التَّلويح إلى غفلةِ كثيرٍ من البشر عمَّا يحقِّق لهم العبوديَّة لله عَزَّوَجَلَّ، وهو طريق السَّعادة، والحياة الطَّيِّبة، والجزاء الحسن. وأنَّ لهذا التَّكليف حِكَمٌ قدَّرها الله عَزَّوَجَلَّ.

ولا يكون العبدُ متحقِّقًا بوصف العبوديَّة إلا بأصلين عظيمين: الأول: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

والثاني: متابعة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

حينئذٍ يرتقي في مدارج العبوديَّة ومسالك الطَّاعات إلى سدَّة السَّعادة والنَّجاة.

الثالث عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ..﴾ [المؤمنون:٥١]:

١ - بيان المعنى:

لقد جاء الخطاب هنا موجَّهًا إلى الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ بصيغة النِّداء: (يا)، وأستعرض هنا بعض أقول المفسِّرين في بيان المراد من النِّداء هنا، وما يذكر هنا يكمِّل ما ذكر في (تنوُّع وجوه المخاطَبات).

فقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنهم لم يخاطَبوا دفعةً، بل خُوطِبَ كلٌّ منهم في زمانه بصيغةٍ مفردة؛ لأنهم أرسلوا في أزمنةٍ مختلفة[(١)]. وفي (تفسير أبي السُّعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "فإنَّ هذا الخطاب قد حُكِي لنا بصيغة الجمع مع أنَّ كلًّا من المخاطَبين لم يخاطب إلا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم في الوجود فكيف باجتماعهم في الخطاب؟"[(٢)]. وقيل: هذا خطاب للنَّبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ والمراد به أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ كأنَّه أخبر أنَّه قد قال لجميع الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ قبله هذا القول، وأمرهم بهذا، والمعنى: كلوا من الحلال[(٣)].

والحاصل أنَّ ظاهر قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ خطاب مع كلِّ الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولكنَّ ذلك غير ممكن؛ لأنَّهم أرسلوا متفرِّقين في أزمنة متفرِّقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب إليهم؟ فلهذا الإشكال اختلفوا في تأويله على وجوه:

---

(١) انظر: تفسير أبي السُّعود (٢٧٦/٤)، روح المعاني (٢٣٩/١٢)، الكشاف (٣٤/٣)، البحر المديد (٥٨٠/٣)، تفسير ابن عادل (٢٢٥/١٤)، تفسير البيضاوي (٨٩/٤)، السِّراج المنير (٥٨٢/٢)، تفسير النَّسفي (٤٧١/٢)، تفسير النَّيسابوري (١٢٢/٥).

(٢) تفسير أبي السُّعود (١٨/٦)، وانظر: البحر المديد (٣٩٠/٣)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٢٣٦/٨).

(٣) انظر: تفسير الوجيز، للواحدي (٧٤٨/٢)، تفسير الطبري (٤٠/١٩)، معاني القرآن وإعرابه (١٥/٤)، القرطبي (١٢٨/١٢).

أحدها: أنَّ المعنى الإعلام بأنَّ كلَّ رسول فهو في زمانه نودي بهذا المعنى، ووصِّي به؛ ليعتقد السَّامع أن أمرًا نودي له جميع الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ووصُّوا به حقيقٌ بأن يؤخذ به ويعمل عليه(١).

وهو الرَّاجح -كما سيأتي-.

وثانيها: أنَّ المراد نبيُّنا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّه ذكر ذلك بعد انقضاء أخبار الرُّسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وإنما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد: (أيُّها القوم كفُّوا عني أذاكم)، ومثله: ﴿الذينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وهو نعيم بن مسعود(٢).

وثالثها: وهو قول الزَّجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣)، واختاره الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤) أنَّ المراد به عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ لأنَّه إنما ذكر ذلك بعدما ذكر مكانه الجامع للطَّعام والشَّراب؛ ولأنَّه روى أنَّ عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان يأكل من غزل أمِّه. والمعنى: وقلنا لعيسى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ﴾ كلوا من الحلال الذي طيَّبه الله عَزَّوَجَلَّ لكم دون الحرام، ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ كما يقال للواحد: (أيُّها القوم كفُّوا عني أذاكم).

---

(١) انظر: الكشاف (٣/٣٤)، تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨٠)، البحر المحيط (٧/٥٦٦)، ابن عادل (١٤/٢٢٥)، تفسير النَّسفي (٢/٤٧١)، تفسير النَّيسابوري (٥/١٢٢-١٢٣).

(٢) انظر: تفسير الطَّبري (٢/١٩١)، تفسير القرطبي (١٢/١٢٧)، الرازي (٥/٣٣١)، تفسير مقاتل (١/٣١٦)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١١/٢٥٢)، بحر العلوم (١/٢٦٦)، الكشف والبيان (٢/١١٣)، النكت والعيون (١/٢٦١)، السمعاني (١/٣٨٠)، البغوي (١/٤٣٥)، زاد المسير (١/٣٤٩)، فتح القدير (١/٤٥٨). وتوجيه هذا القول كما في (المحرَّر الوجيز) أن يكون الخطاب لمحمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وخرج بهذه الصِّيغة ليفهم وجيزًا أنَّ هذه المقالة قد خوطب بها كلُّ نبيٍّ أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لتاجر: (يا تُجَّار ينبغي أن تجتنبوا الرِّبا) فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أنَّ هذه المقالة تصلح لجميع صنفه. انظر: المحرَّر الوجيز (٤/١٤٦)، وانظر: تفسير القرطبي (١٢/١٢٨).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٤/١٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٩/٤٠)، الدر المنثور (٦/١٠٢)، ابن كثير (٥/٤٧٨)، تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨١)، الهداية إلى بلوغ النِّهاية، لمكي (٧/٤٩٧٢)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/١٥)، السمعاني (٣/٤٧٨)، البغوي (٣/٣٦٧)، زاد المسير (٣/٢٦٤)، فتح القدير (٣/ ٥٧٧).

٢ - التَّرجيح:

أمَّا التَّرجيح بين هذه الأقوال فإنِّي أرى ترجيح القول الأوَّل؛ لأنَّه أوفق للفظ الآية؛ ولأنَّه روي عن أمِّ عبد الله أخت شدَّاد بن أوس[(١)] أنها بعثت إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقدح من لَبَن في شدَّة الحرِّ عند فطره وهو صائم فردَّه الرَّسولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إليها، وقال: ((**من أين لك هذا؟**))، فقالت: من شاة لي، ثمَّ ردَّه، وقال: ((**من أين هذه الشَّاة؟**))، فقالت: اشتريتها بمالي فأخذه. ثمَّ إنها جاءته وقالت: يا رسول الله لم رددتَّه؟ فقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**بذلك أمرت الرُّسل أن لا يأكلوا إلا طيِّبًا، ولا يعملوا إلَّا صالحًا**))"[(٢)].

ويتبيَّن مما سبق ما لذلك الخطاب القرآني الذي جاء بصيغة النِّداء (يا) من أثر على الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ ينعكس على أمَّةِ كلِّ رسولٍ منهم منهجًا وعملًا وتطبيقًا؛ لأنهم الأسوةُ في ذلك عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ...

٣ - ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون:٥١] ففيه وجهان:

---

(١) هي أمُّ عبد الله بنت أوس الأنصاريَّة أخت شدَّاد بن أوس. لها صحبة. انظر: الإصابة (٢٥٠/٨)، وانظر: الثِّقات، لابن حبَّان (٤٦٣/٣)، معرفة الصَّحابة (٣٥٢٩/٦).

(٢) والحديث حسن، أخرجه الطبراني [٤٢٨]، والحاكم [٧١٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، عن أمِّ عبد الله أخت شدَّاد بن أوس. قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ في (مجمع الزَّوائد) (٥٢١/١٠): "فيه أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف". وأخرجه أيضًا: أحمدُ في (الزهد) (ص:٣٩٨)، والطبراني في (مسند الشَّاميين) [١٤٨٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠٥/٦). قال المناوي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قال الحاكم: صحيح فردَّه الذَّهبي بأنَّ أبا بكر بن أبي مريم راويه واه" التَّيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (١٩٣/٢).

الأوَّل: أنَّه الحلال. وقيل: طيِّبات الرزق حلال وصاف وقوام، فالحلال الذي لا يعصى الله عَزَّوَجَلَّ فيه، والصَّافي الذي لا ينسى الله عَزَّوَجَلَّ فيه، والقوام ما يمسك النَّفس ويحفظ العقل(١).

والثَّاني: أنَّه المستطاب المستلذُّ من المأكل والفواكه(٢).

وقال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:١٧٢]، تعقيبًا على قول ابن عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: -الطَّيب هنا يجمع الحلالَ المستلذَّ، والآية تشيرُ بتبعيض (من) إلى أنَّ الحرام رزقٌ-. قال ابن عرفة: وجه دلالتها على ذلك من المفهوم؛ لأنَّ مفهومه أنَّ البعض الآخر، وهو الذي ليس بحلالٍ ولا مستلذٍّ غير مأذون فيه.

وعادتهم يوردون هنا سؤالًا وهو أنَّه قال في الآية الأخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، ولم يقل: (مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) مع أنَّ تلك خطابٌ للرُّسل (فهو كان يكون) أولى بهذا اللَّفظ؟ وعادتهم يجيبون بوجيهين:

الأوَّل: أمَّا إذا قلنا: إنَّ الرِّزق لا يطلق إلا على الحلال فنقول: لما كان الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ معصومين أُمروا أمرًا مطلقًا من غير تعيين الحلال، وغيرهم ليس بمعصوم، فقيِّدَ الإذنُ في الأكل له بالحلال فقط، فيكون الطَّيب على هذا المراد به: المستلذُّ.

الجواب الثَّاني: الرُّسل في مقام كمال التَّوحيد، ونسبة كلُّ الأشياء إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وأمَّا غيرهم فليس كذلك فقد يذهل حين اقتطاف الثَّمرة، ويظنُّ أنها من الشَّجرة، ويغفل عن كون الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أخرجها منها وأنبتها فقيل لهم: ﴿كُلُواْ مِن

---

(١) انظر: الكشاف (٣٤/٣)، تفسير البيضاوي (٨٩/٤)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٣٣٤/٦)، السِّراج المنير (٥٨٢/٢)، تفسير الرَّازي (٢٨١/٢٣)، غرائب القرآن (١٢٣/٥)، الكليَّات (ص:٤٠٠).

(٢) انظر: المحرَّر الوجيز (٥٦٦/٤)، تفسير الرَّازي (٢٨١/٢٣)، تفسير ابن عادل (٢٢٦/١٤)، الخازن (١٤٠/١)، أحكام القرآن، للجصَّاص (٣٠٧/٣).

طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ حتَّى يعتقدوا حين التَّناول أنَّ ذلك الرِّزق كلُّه من عند الله عَزَّوَجَلَّ، وليس للمتسبِّب فيه صنع بوجه[1].

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فبيَّن عَزَّوَجَلَّ أنه وإن ثقل عليهم بالنُّبوَّة وبما ألزمهم القيام بحقِّها، فقد أباح لهم أكل الطَّيبات كما أباح لغيرهم. واعلم أنَّه سبحانه كما قال للمرسلين: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فقال للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، واعلم أن تقديم قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُواْ مِنَ الطيبات﴾ على قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ كالدِّلالة على أنَّ العمل الصَّالح لا بدَّ وأن يكون مسبوقًا بأكل الحلال، فأمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[2] فهو تحذير من مخالفة ما أمرهم به، وإذا كان ذلك تحذيرًا للرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مع علوِّ شأنهم فبأن يكون تحذيرًا لغيرهم أولى"[3].

٤ - إجمال النَّتائج المستفادة:

أ. خطاب الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بصيغة النِّداء (يا) هو من تنوُّع أساليب الخطاب في القرآن الكريم باعتبار المخاطَبين.

ب. إنَّ خطابهم لم يكن دفعةً واحدة، وإنما خوطب كلُّ واحد منهم في زمانه على أصحِّ الأقوال.

ج. توضيح أثر ما ولي أداة النِّداء (يا)، وما ولي المنادى (الرُّسل) على الرُّسل أنفسهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

د. توضيح أثر ما ولي أداة النِّداء (يا) على أمَّةِ كلِّ رسول منهم عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

هـ. إنَّ الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أسوةٌ لأممهم في الامتثال والعمل والتَّطبيق.

و. إنَّ لهذه الأسوة أثرٌ في تفعيلِ الخطاب بالنِّسبة للمخاطَبين.

---

(١) تفسير ابن عرفة (١/٥٠٥- ٥٠٦).

(٢) وهو ما ختمت به الآية، أعني: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ...﴾.

(٣) انظر: تفسير الرَّازي (٢٣/٢٨١)، تفسير ابن عادل (١٤/٢٢٦)، الخازن (٣/٢٧٣).

ز. إنَّ ما خوطبوا به مما اتفقت عليه الشَّرائع، وذلك يدلُّ على أهميَّة ما خوطبوا به، فهم متَّفقون على إباحة الطَّيبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متَّفقون على كلِّ عملٍ صالح وإن تنوَّعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشَّرائع، فإنها كلُّها عملٌ صالح، ولكن تتفاوتُ بتفاوتِ الأزمنة؛ ولهذا فإنَّ الأعمال الصَّالحة قد اتَّفقت عليها الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ وما جاؤوا به الشَّرائع فيها صلاحٌ للأمم، كالأمر بتوحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاص الدِّين له، ومحبَّته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصِّدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبرِّ الوالدين، والإحسان إلى الضُّعفاء والمساكين واليتامى، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك.

ح. إنَّ ما خوطبوا به ينعكس أثره على أممهم، حيث يتنبَّه المخاطَبون إلى أنَّ أمرًا نودي له جميع الرُّسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، ووصُّوا به حقيقٌ بأن يؤخذ ويعمل به.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: [المؤمنون:٥١].

الرابع عشر: ﴿...يَا أَهْلَ يَثْرِبَ...﴾ [الأحزاب:١٣]:

ولا بدَّ من الرُّجوع إلى الآية للإحاطة بما يتعلَّق بهذه الصِّيغة من معنى، حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلا فِرَارًا﴾. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَتْ﴾ أنَّثَ الفعل إشارة إلى رخاوتهم وتأنثهم في الأقوال والأفعال ﴿طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾، أي: قوم كثير من موتى القلوب ومرضاها يطوف بعضهم ببعض، ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عدلوا عن الاسم -الذي وسمها به النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من (المدينة) و(طيبة) مع حسنه- إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديمًا مع احتمال قبحه باشتقاقه من (الثَّرب)

الذي هو اللَّوم والتَّعنيف إظهارًا للعدول عن الإسلام يقال: (ثرب عليه ثربًا)، و(أثرب)، بمعنى: (ثرب تثريبًا) -إذا لامه وعيَّره بذنبه وذكَّره به[1]. وأكَّدوا بنفي الجنس لكثرة مخالفتهم في ذلك فقالوا: ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾، أي: قيامًا أو موضع قيام تقومون به -على قراءة الجماعة بالفتح، وعلى قراءة حفص بالضَّمِّ-[2] المعنى: لا إقامةَ أو موضع إقامةٍ في مكان القتال ومقارعة الأبطال، ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هرابًا، وكونوا مع نسائكم أذنابًا، أو إلى دينكم الأوَّل على وجه المصارحة لتكون لكم عند هذه الجنود يد"[3] إلى آخر ما ذكره.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١].

وهي: الأحزاب: [١٣].

---

(١) وقد جاءت هذه المعاني مختصرة في (مختار الصِّحاح): "(الثَّرب): شحم قد غشي الكرش والأمعاء رقيق، و(التَّثريب): التَّعبير والاستقصاء في اللَّوم، و(ثرب عليه تثريبًا) قبح عليه فعله، و(يثرب) مدينة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". مختار الصِّحاح، مادَّة: (ثرب). وزاد في (المغرب): "وهي مخصوصة بالحمى ". المغرب، مادَّة: (ثرب). وقد جاء مفصَّلًا في (لسان العرب)، مادَّة: (ثرب). وإن ذلك يدلُّ على أنهم عدلوا عن الاسم الذي وسمها به النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من (المدينة) و(طيبة) مع حسنه إلى الاسم الذي كانت تدعى به قديما مع احتمال قبحه كما ذكر البقاعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في (نظم الدُّرر) (٨٣/٦).

(٢) وفي (الإتحاف): "واختلف في ﴿لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب:١٣] فحفص بضمِّ الميم الأولى اسم مكان من (أقام)، أي: لا مكان إقامة، أو مصدرًا منه، أي: لا إقامة. وقرأ بالضَّمِّ في ثاني (الدُّخان): ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ [الدُّخان:٥١] نافع وابن عامر وأبو جعفر، وافقهم الأعمش والباقون بالفتح فيهما مصدر قام، أي: لا قيام أو اسم مكان منه، أي: لا مكان. وأجمعوا على فتح الأوَّل من (الدُّخان): ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الدُّخان:٢٦]..". إتحاف فضلاء البشر (ص:٤٥٢)، وانظر: معاني القرآن، للنَّحاس (٣٣١/٥)، إبراز المعاني (٦٤٧/٢)، معاني القرآن، للزَّجاج (٢١٩/٤)، البحر المحيط (٤٦٠/٨)، تفسير أبي السعود (٩٤/٧)، روح المعاني (١٥٧/١١).

(٣) بقليل من التَّصرف عن (نظم الدُّرر) (٨٣/٦).

الخامس عشر: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ...﴾ [الأحزاب:٣٢]:

١ - بيان المعنى:

سبق بيان أنَّه من نداء النِّسبة، وهو من المضاف إلى الخاصِّ إضافة تدلُّ على التَّشريف. وفيه "تلوين للخطاب وتوجيه له إليهنَّ[١]؛ لإظهار الاعتناء بنصحهنَّ ونداؤهنَّ ههنا، وفيما بعد بالإضافة إليه عليه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لأنها التي يدور عليها ما يرد عليهنَّ من الأحكام، واعتبار كونهنَّ نساء في الموضعين أبلغ من اعتبار كونهنَّ أزواجًا كما لا يخفى على المتأمِّل"[٢].

وقد جاء في تمام معنى الآية -أعني: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب:٣٢] - ما يدلُّ على مكانة نساء النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وأهميَّة الخطاب إليهنَّ بهذه الصِّيغة، وبهذا الوصف، وبهذه الإضافة التي تدلُّ على التَّشريف.

ولم يقل: كواحدة؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يصلح للواحد والاثنين والجمع والمذكَّر والمؤنَّث[٣]، فالمعنى: كجماعات من جماعات النِّساء إذا تقصيت أمَّة النِّساء جماعةً جماعة لم توجد فيهنَّ جماعةٌ تساويكنَّ في الفضل، لما خَصَكُنَّ الله عَزَّوَجَلَّ به من قربة بقرب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ونزول الوحي الذي بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ في بيوتكنَّ[٤].

"و(النِّساء) اسم جمع للمرأة لا واحد له من لفظه، والمراد به هنا: الأزواج. وإطلاق النِّساء على الأزواج شائع بالإضافة كثيرًا، نحو: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وبدون

---

(١) حيث جاء بعد قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب:٢٨ - ٢٩].

(٢) روح المعاني (١٤٨/٢١)، تفسير أبي السُّعود (١٠١/ ٧).

(٣) انظر: تفسير البغوي (٦٣٥/٣)، الكشف والبيان (٣٤/٨)، ابن عادل (٥٤٣/١٥)، السراج المنير (٢٤٢/٣).

(٤) انظر: نظم الدُّرر (١٠١/ ٦).

إضافة مع القرينة كما هنا، فالمراد: اعتزلوا نساءكم، أي: اعتزلوا ما هو أخصُّ الأحوال بهنَّ، وهو المجامعة"[1].

قال الإمام الشَّافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكان ممَّا خصَّ اللَّهُ به نبيَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قولهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، فحرَّم نكاح نسائه من بعده على العالمين، وليس هكذا نساء أحدٍ غيره. وقال اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنْ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب:٣٢]، فَأَبَانَهُنَّ به مِنْ نساء العالمين. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، مثل ما وصفتُ من اتِّساع لسان العرب، وأنَّ الكلمة الواحدة تجمع معاني مختلفةً، وَمِمَّا وَصَفْتُ مِنْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَحْكَمَ كثيرًا من فرائضه بوحيه، وسنَّ شرائعَ واختلافها، على لسان نبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي فعله. فقوله: ﴿أُمَّهَاتُهُمْ﴾ يعني في معنى دون معنى، وذلك أنَّه لا يحِلُّ لهم نكاحهنَّ بحال، ولا يحرم عليهم نكاحُ بناتٍ لو كُنَّ لهنَّ كما يحرم عليهم نكاح بنات أمَّهاتهم اللاَّتي ولدنهم، أو أرضعنهم. وذكر الحجَّة في هذا، ثمَّ قال: وقد ينزل القرآن في النَّازلة ينزل على ما يفهمه من أنزلت فيه كالعامَّة في الظَّاهر، وهي يراد بها الخاصُّ والمعنى دون ما سواه. والعرب تقول للمرأة: (تَرِبُتْ أَمْرَهُمْ): (أُمُّنَا وَأُمُّ الْعِيَالِ)، وتقول كذلك للرَّجل يتولَّى أن يَقُوتَهُمْ: (أُمُّ الْعِيَال)، بمعنى أنَّه وضع نفسه موضع الأُمِّ التي تَرِبُتْ أَمْرَ الْعِيَال"[2].

٢ - ومما سبق يتبيَّن ما يلي:

أ. إنَّ النِّداء إليهنَّ يشتمل على الاعتناء بالنُّصح لهنَّ، وتظهر أهميَّة النِّداء إليهنَّ بهذه الصِّيغة، وبهذا الوصف، وبهذه الإضافة.

---

(١) التَّحرير والتَّنوير (٢/ ٣٦٦).

(٢) أحكام القرآن، للشَّافعي (١/١٦٧-١٦٩).

ب. الإضافة يترتب عليها أحكام تخصهنَّ.

ج. الإضافة هنا إضافة تشريف.

د. تُظهر الإضافة ما خُصَّ به نساء النَّبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ من الفضل.

هـ. توضيح التَّشبيه في الآية، وبيان أنَّه تشبيه السَّلب في النُّزول لا في العلوّ.

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي: [الأحزاب: ٣٠ – ٣٢].

السادس عشر: ﴿..يَا قَوْمَنَا....﴾ [الأحقاف: ٣٠– ٣١]:

١ – وقد جاءت هذه الصِّيغة في الخطاب القرآني على لسان الجنِّ مرَّتين: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠ – ٣١].

٢ – وتدلُّ الآيتان على:

أ. وجود الجنِّ.

ب. سماع الجنِّ للقرآن الكريم، أنهم مخاطَبون به، ويدلُّ على ذلك أنهم أنذروا قومهم.

ج. إثباتُ أنَّ النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلٌ إلى الجنِّ كما أنَّه مرسلٌ إلى الإنس، ويدلُّ على ذلك أيضًا ما سبق من تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْأِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ [الأنعام: ١٣٠].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي: [الأحقاف: ٣٠ – ٣١].

السابع عشر: ﴿....يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]:

١ - بيان المعنى:

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ أي: إن الخطاب المنزَّل يعقله وينتفع به أصحاب البصائر السليمة النافذة، والعقول الراجحة. وتمام الآية: ﴿هُوَ الذى أَخْرَجَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾.

أي: تدبَّروا وانظروا فيما نزل بقريظة والنَّضير[(١)]، فقايسوا فعالهم، واتَّعظوا بالعذاب الذي نزل بهم. و(العبر): جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان، ويعمل به، ويعتبر ليستدلَّ به على غيره. و(العبرة): الاعتبار بما مضى. وقيل: (العبرة): الاسم من الاعتبار. والعرب تقول: (اللهمَّ اجْعَلْنا ممَّن يَعبَرُ الدُّنيا ولا يَعْمُرُها)، أي: ممَّن يعتبر بها، ولا يموت سريعًا حتَّى يرضيك بالطاعة[(٢)].

و"(العبرة) بالكسر: الاسم من الاعتبار، وبالفتح: تحلب الدَّمع، وعَبِر الرَّجل والمرأة والعين من باب: (طَرِبَ)، أي: جرى دمعه، والنَّعت في الكلِّ عابر، واستعبرت عينه أيضًا، و(العبران) الباكي.."[(٣)].

---

(١) كانت في (يثرب) منهم ثلاث قبائل مشهورة: ١- (بنو قَيْنُقَاع): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل (المدينة). ٢- (بنو النَّضِير): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). ٣- (بنو قُرَيْظة): وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٣٢٦/٤)، البداية والنِّهاية (٩٢/٤).

(٢) انظر: لسان العرب، مادَّة: (عبر) (٥٢٩/٤). تاج العروس (٥٠٧/١٢)، القاموس المحيط (ص:٥٩٩).

(٣) مختار الصحاح، مادَّة: (عبر) (ص:٤٦٧)، وانظر: لسان العرب، (٥٢٩/٤)، تاج العروس (٥٠٥/١٢)، والصحاح (٧٣٢/٢)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٥٢/١٢)، عمدة القاري، للعيني (١٢٦/٢٤).

أمَّا (الاعتبار) فهو الحالة التي يُتَوصَّل بها من معرفَة المشَاهد إلى ما ليس بمُشَاهَدٍ[1]. أو هو التَّدبر وقياس ما غاب على ما ظهر. ويكون بمعنى: (الاختبار والامتحان)، [نحو] عَبَرْتُ الدَّراهم واعتبرتها فوجدتها ألفًا. وبمعنى: (الاتعاظ) نحو: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾، وبمعنى: (الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم) نحو قول الفقهاء: (الاعتبار بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدُّم به[2]. و(العبرة) و(الاعتبار): الاتِّعاظ، أو الاعْتِبارُ بما مَضَى. وتكون بمعنى: الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم، نحو قولهم: (العبرة بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقدم بالعقب كذا في (المصباح)[3].

وقيل: المجاوزة من عدوة دنيا إلى عدوة قصوى، ومن علم أدنى إلى علم أعلى، ففي لفظها بما ينالون من ورائها مما هو أعظم منها إلى غاية العبرة العظمى[4].

٢ – الاستدلال بالآية على القياس:

وقد استدلَّ جمعٌ من المفسِّرين بهذه الآية على الاحتجاج القياس..[5].

---

(١) وقال المفسِّرون: (الاعتبار) هو النَّظر في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنَّظر فيها شيء آخر من جنسها. والاعتبار له مفاهيم مختلفة، وتتعدَّد هذه المفاهيم بتعدُّد الفنون. انظر: الكليات (ص:١٤٧-١٤٨).

(٢) انظر: التَّعاريف (ص:٧٣–٧٤)، وتاج العروس، مادَّة: (عبر) (٥١١/١٢).

(٣) انظر: المصباح المنير، مادَّة: (عبر) (٣٨٩/٢–٣٩٠)، وكذلك التَّعاريف (ص:٥٠١)، وانظر: بغية المسترشدين، لعبد الرَّحمن باعلوي الحضرمي، الشَّافعي (ص:١٤٥).

(٤) انظر: التَّعاريف (ص:٥٠١)، وانظر: نظم الدرر (٣٣/٢).

(٥) انظر: روح المعاني (١٢٢/٤)، (٤١/٢٨)، تفسير البيضاوي (٥/ ١٩٨)، التحرير والتنوير (٧٢/٢٨)، تفسير النسفي (٤٥٦/٣)، تفسير أبي السعود (٢٢٦/٨)، تفسير السمعاني (٣٩٧/٥)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٥٧/١٤– ٥٨)، نظم الدُّرر (٥١٣/٧)، تفسير ابن جزي (٣٥٨/٢). قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنا قد تمسكنا بهذه الآية في كتاب: (المحصول من أصول الفقه) على أن القياس حجة". تفسير الرازي (٥٠٣/٢٩).

ورأى غيرهم أنها لا تدلُّ على القياس[1]، وهي مسألة مختلف فيها، وهي مبسوطة في كتب أصول الفقه.

ويذكر ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ "بعض المواضع يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأصل المعتبر به ليستفاد حكم الفرع منه من غير تصريحٍ بذكر الفرع، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦]؛ فإنَّ هذا يحتاج إلى تفكُّر؛ ولهذا سأل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عنها من حضره من الصَّحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فأجابه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بالجواب الذي أرضاه[2].

ونظير ذلك ذكر القصص؛ فإنها كلها أمثال هي أصول قياس واعتبار، ولا يمكن هناك تعديد ما يعتبر بها؛ لأنَّ كل إنسان له في حالة منها نصيب، فيقال فيها: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف:١١١]، ويقال عقب حكايتها: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢]، ويقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران:١٣]، والاعتبار هو القياس بعينه.

---

(١) ومنهم ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)، حيث قال: "استدلَّ الذين أثبتوا القياس في الفقه بهذه الآية، واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها..". تفسير ابن جزي (١٠٧/٤)، وانظر: المحلى، لابن حزم (٣٦٤/٩)، روضة الناظر (٢٨٥/١ – ٢٨٦).

(٢) روى البخاري عن عبيد بن عمير، قال: قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يومًا لأصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فيم ترون هذه الآية نزلت: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: ((قولوا نعلم أو لا نعلم))، فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: ((يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك))، قال ابن عباس: ضربت مثلًا لعمل، قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((أي عمل؟))، قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لعمل، قال عمر: ((لرجل غني يعمل بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله)). صحيح البخاري [٤٥٣٨]. فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ﴾ تذييل، أي: كهذا البيان الذي فيه تقريب المعقول بالمحسوس بين الله عَزَّوَجَلَّ نُصحًا لكم؛ رجاء تفكركم في العواقب حتى لا تكونوا على غفلة.

كما قال ابنُ عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لما سئل عن (دية الأصابع) فقال: هي سواء[1]. واعتبروا ذلك بالأسنان، أي: قيسوها بها، فإنَّ الأسنان مستوية الدِّية مع اختلاف المنافع، فكذلك الأصابع. ويقال: اعتبرت الدَّراهم بالصَّنْجَة[2] إذا قدَّرتها بها"[3].

قال الإمام المطرزي رَحِمَهُ اللَّهُ في (عنوان الأصول): "والقياس حجة؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾ [الحشر:٢][4]؛..

---

(١) واستدلَّ على ذلك بروايات منها ما جاء في صحيح البخاري [٦٨٩٥] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ((هذه وهذه سواء)) يعني: الخنصر والإبهام.

(٢) (الصَّنْجَة): الميزان -بفتح فسكون- ما يوضع في الميزان مقابل ما يوزن لمعرفة قدره. وقد تنطقُ بالسِّين بدل الصَّاد، وهي فارسيَّة الأصل. وكلُّ كلمة لا يكون فيها حرف من (حروف الإذلاق) -وهي: (فرَّ من لبٍّ)-، فهي كلمة غير عربيَّة أصلا، أي: معربة. ومن هذه الكلمات: (الصنجة). وفي (مختار الصِّحاح): "صَنْجَة الميزان: ما يوزن به معرب ولا تقل سنجة". مختار الصحاح، مادة: (صنج) (ص:٣٧٥). وفي (الموسوعة الفقهية الكويتية): "(الصَّنْج) لغة: شيء يُتَّخَذ من صفْرٍ يُضربُ أحدهما على الآخر وآلة بأوتارٍ يضرب بها، ويقال لما يُجعل في إطار الدُّفِّ من النُّحاس المدوَّر صغارًا: (صُنُوج) أَيْضًا. ويؤخذ من استعمالات الفقهاء للفظ: (الصَّنْجَة) أنَّ المراد بها عندهم: قطعٌ مَعْدِنِيَّةٌ ذاتُ أَثْقَالٍ محدودة مختلفة المقادير يوزن بها. الموسوعة الفقهية الكويتيَّة (٥/٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٤/٥٧-٥٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم (٥/٣١٧)، المستصفى (١/٢٩٣)، (١/٣٧٠)، الإبهاج (٣/١٠)، (٣/٢٧٤)، أصول السَّرخسي (٢/٩٣)، (٢/١٠٦)، (٢/١٢٥)، المنخول (١/٣٢٩).

(٤) فمن العلماء من يرى أنَّ الاعتبار عامٌّ يشمل كلَّ شيءٍ فيه ردُّ الشَّيء على المثيل سواء في الاتِّعاظ، أو الحكم الشَّرعي فيدخل في ذلك القياس؛ لأنَّه رد الشَّيء إلى شبيهه، وتعديةٌ من أصلٍ إلى فرع. والاستدلال بهذه الآية على القياس مع المناقشة والترجيح مبسوط في كتب الأصول، انظر: أحكام القرآن، للجصَّاص (٥/٣١٧)، أصول السَّرخسي (٢/٩٣) فما بعد، المحلَّى (٩/٣٦٤)، المستصفى (١/٢٩٣) فما بعد، النُّبذة الكافية (ص:٦٢)، الإبهاج (٣/٩) فما بعد، المعتمد (٢/٢٢٣)، شرح التَّلويح (٢/١١)، المحصول (٥/٧٣)، حاشية العطَّار (٢/٢٥٠)، روضة النَّاظر (١/٢٨٥)، قواطع الأدلَّة (٢/٩٢) فما بعد، كشف الأسرار (٢/١٠٨)، (٣/٣٠٦) فما بعد، إرشاد الفحول (١/٣٤٠)، الإحكام، للآمدي (١/٩٠)، (٤/٣٢) فما بعد، الإمام في بيان أدلة الأحكام، للعزِّ بن عبد السَّلام (ص:١٦٣)، الإنصاف، للبطليوسي (ص:١٣٨)، الاجتهاد من كتاب التَّلخيص، لإمام الحرمين (ص:١١٤)، البحر المحيط=

..ولإجماع الصحابة، عَمِلَ به الخلفاءُ الأربعة، ولم ينكره الباقون"[1].

٣ - إجمال النَّتائج المستفادة:

وممَّا سبق يتبيَّن أن معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾.

أ. احملوا أنفسكم بالإمعان في التَّأمل في عظيم قدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ب. الاعتبار أحد قوانين الشَّرع، والسَّعيد من اعتبر بغيره؛ لأنَّه ينتقل عقله من حال ذلك الغير إلى حال نفسه، ومن لم يعتبر بغيره اعتبر به غيره.

ج. احتجَّ بالآية مثبتوا القياس فإنَّه مجاوزة من الأصل إلى الفرع، والمجاوزة اعتبار، وهو مأمور به في هذه الآية فهو واجب. ولما كان الاعتبار عظيم النَّفع، لا يحصل إلَّا للكُمَّل، زاده تعظيمًا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ بالنَّظر بأبصاركم وبصائركم في غريب هذا الصُّنع؛ لتحقِّقوا به ما وعدكم على لسان رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من إظهار دينه، وإعزاز نبيِّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا تعتمدوا على غير الله عَزَّوَجَلَّ..[2].

د. الاعتبار مأخوذ من العبور والمجاوزة من شيء إلى شيء؛ ولهذا سمِّيت (العَبْرة) - بفتح العين-[3] عبرة؛ لأنها تنتقل من العين إلى الخدِّ. وسمِّي (علم التَّعبير)؛ لأنَّ صاحبه ينتقل من التَّخيل إلى المعقول، وسمِّيت (الألفاظ) عبارات؛ لأنها تنقل المعاني عن لسان القائل إلى عقل المستمع.

=(٣٣٧/٢)، (١٩/٤-٢٠)، والتَّحبير شرح التَّحرير (٥٩٥/٢)، (٣٤٨٢/٧) فما بعد، والتَّقرير والتَّحبير (٣٢٥/٣) فما بعد.

(١) انظر تحقيقنا: سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ] (ص: ٢٨١-٢٨٢).

(٢) انظر: نظم الدرر (٤١١/١٩).

(٣) إنَّ العَبْرة -بفتح العين- ليست هي فقط الدَّمعة، بل الدَّمعة التي تسيل على جزء من الخدِّ بعد أن تجتاز المآقي، و(المآقي): أطراف العين.

هـ. في الآية دعوة إلى التَّأمُّل والنَّظر في سُنَّةُ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ودأبه في الأمم السَّابقين واللَّاحقين، والاعتبار بما قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا من نبأهم.

و. إنَّ هذا اللَّون من ألوان الخطاب له أهميَّة عظيمة لا تخفى على كلِّ متأمِّلٍ؛ ولذلك قد سبق إفراده بالدِّراسة والبحث ضمن الموضوعات فيما يتعلَّق من الخطاب بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه.

الثامن عشر: ﴿..يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا...﴾ [الجمعة:٦]:

وتمام الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وهو (نداء تنبيه مع ذمٍّ)، والخطاب إلى عامَّة بني إسرائيل.

وقد جاء النِّداء مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾ للاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاصٍّ منصوصٍ فيه على أنَّه مرسل بقول يبلِّغه، وإلا فإنَّ القرآن كلُّه مأمورٌ بإبلاغه، أي: يا أيُّها الرَّسول الذي هم قاطعون بأنَّه رسوله الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول وستأتي عند ذكر صيغة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]. و﴿هَادُوا﴾: تَابُوا. وقد ذكر ابن العربي رَحِمَهُٱللَّهُ في (أحكام القرآن الكريم) لهذه الكلمة أربعة من المعاني: أحدها: "هَادَ يَهُودُ: تَابَ. الثَّانِي: هَادَ: إذَا سَكَنَ. الثَّالِثُ: هَادَ: فَتَرَ. الرَّابِعُ: هَادَ: دَخَلَ فِي الْيَهُودِيَّةِ.

وقد قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُونُوا هُودًا﴾ [البقرة:١٣٥]، أي: يهُودًا. ثمَّ حذف الياء.

فأمَّا من قال: إنَّه التَّائب يشهدُ لهُ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦]، أي: تُبْنَا، وكلُّ تائبٍ إلى ربِّه ساكنٌ إليه فاترٌ عن معصيته. وهذا معنى متقاربٍ"[(١)]. وقد

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٢/٢٩٥). وينظر أيضًا مفصَّلًا في (لسان العرب)، مادَّة: (هود) (٣/٤٣٩).

قال الله عَزَّوَجَلَّ في الآية التَّالية: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٧].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتأمَّل حرف (لا) كيف تجد في نهايته ألفًا يمتدُّ بها الصَّوت ما لم يقطعْه ضيقُ النَّفس فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها، ولن يعكس ذلك فتأمَّلْه، فإنَّه معنى بديع، وانظر كيف جاء في أفصح الكلام، كلام الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا﴾ بحرف (لا) في الموضع الذي اقترن به (حرف الشَّرط) بالفعل، فصار من صيغ العموم، فانسحب على جميع الأزمنة، وهو قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ كأنَّه يقول: متى زعموا ذلك لوقت من الأوقات أو زمن من الأزمان، وقيل لهم: تمنَّوا الموتَ فلا يتمنَّونه أبدًا. وحرف الشَّرط دلَّ على هذا المعنى، وحرف (لا) في الجواب بإزاء صيغة العموم؛ لاتِّساع معنى النَّفي فيها.."[1].

والحاصل أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بيَّن أنَّ كلَّ همِّهم، وكلَّ أملهم الحياة الدُّنيا، وهم يعرفون أنهم بعد الموت سينتقلون إلى العذاب بسبب ظلمهم وكفرهم.

ولقد عاين النَّاسُ وأدركوا عظيم جبن اليهود، وكبير حرصهم على الحياة الدُّنيا. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إلا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر:١٤].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [الجمعة:٦].

التاسع عشر: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا....﴾ [التحريم:٧]:

١ - بيان المعنى:

جاء في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّه "مقول لقول قد حذف ثقةً بدلالة الحال عليه، يقال لهم ذلك

(١) انظر تمام كلامه في (بدائع الفوائد) (١/١٠٢- ١٠٣).

عند إدخال الملائكة إيَّاهم النَّار حسبما أمروا به، فتعريف (اليوم) للعهد، ونهيهم عن الاعتذار؛ لأنهم لا عذرَ لهم؛ أو لأنَّ العذر لا ينفعهم. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا من الكفر والمعاصي بعد ما نهيتم عنهما أشدَّ النَّهي، وأمرتم بالإيمان والطَّاعة على أتمِّ وجه"[1].

ونظيره في المعنى نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنْفَعُ الذينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧]، ونحو: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية:٣٥].

٢ – النتائج:

ومِمَّا سبقَ يتبيَّن أنَّ الخطاب إلى الذين كفروا قطعٌ لأعذارهم حتَّى لا تكون لهم حُجَّة. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ﴾، أي: فإنَّ هذا اليوم ليس يوم الاعتذار، فقد فات زمان الاعتذار، وصار الأمر إلى ما صار..

وسيأتي مزيد بيان عند تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١].

أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [التَّحريم:٧].

العشرون: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ...﴾ [الانفطار:٦]:

١ – بيان المعنى:

أمَّا يتعلَّق بمعنى كلمة (إنسان) فقد سبق في (عموم الخطاب)، وكذلك الخطاب بهذه الصِّيغة.

---

(١) روح المعاني (١٥٨/٢٨)، وانظر: تفسير أبي السعود (٢٦٨/٨).

وفي الآية ما يدلُّ على أنَّ الإنسان يتميَّزُ عن سائر المخلوقات بهذا الوصف، مكرَّمٌ ومنعم عليه، فيتحتَّم عليه أن يقابل النِّعمة بالشُّكر وأداء ما يجب عليه، وأن لا يتجرأ على عصيان من خلقه، وأنعم عليه بالنِّعم التي لا تحصى، وجعل له الحياة مؤقَّتة، وهي دار اختبار له وامتحان، وأن لا ينخدع بزخرف الدُّنيا وإغواء الشَّيطان.

٢ - إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦]، أي: "أيُّ شيءٍ خدعك وجرَّأك على عصيانه، وقد علمت ما بين يديك من الدَّواهي التَّامَّة، والعراقيل الطَّامَّة، وما سيكون حينئذٍ من مشاهدة أعمالك كلِّها؟ والتَّعرض لعنوان كرمه عَزَّوَجَلَّ للإيذان بأنَّه ليس ممَّا يصلح أن يكون مدارًا لاغترارِه يغويه الشَّيطان، ويقول له: افعل ما شئت فإنَّ ربَّك كريم قد تفضَّل عليك في الدُّنيا وسيفعل مثله في الآخرة، فإنَّه قياس عقيم، وتمنية باطلة، بل هو مما يوجب المبالغة في الإقبال على الإيمان والطَّاعة، واجتناب الكفر والعصيان، كأنَّه قيل: ما حملك على عصيان ربِّك الموصوف بالصِّفات الزَّاجرة عنه الدَّاعية إلى خلافه؟!"[(١)] إلى غير ذلك من الصِّفات التي هي مقرِّرةٌ للرُّبوبيَّة مبيِّنةٌ لكرم الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان وكرَّمه ونعَّمه، وما جاء من صيغة النِّداء في خطاب الإنسان تدلُّ على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده، ينبِّههم إلى ما فيه الخيرُ لهم. و(ما ولي المنادَى) فيه ما فيه من التَّذكير بالنِّعم، ونلحظ ذلك في الآية السَّابعة من (سورة الانفطار): ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾ [الانفطار:٦ – ٧]، وحيث جاء ذكر الإنسان في (سورة التِّين) قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤]، فقد جاء ذكر (الإنسان) في السَّورتين، وكذلك التَّذكير بالخلق في أحسن تقويم.

---

(١) تفسير أبي السُّعود (١٢١/٩)، وانظر: البحر المديد (٢٥٤/٧).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾ [التين:١– ٨].

وقد أقسم بذلك على أنَّ الإنسان بعد أن جعل في أحسن تقويم إن آمن وعمل صالحًا كان له أجر غير ممنون، وإلا كان في أسفل سافلين، فتضمَّنت السُّورة بيان ما بعث به هؤلاء الرُّسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

ج. أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [٢].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [٢]. وهي على النَّحو التَّالي: [الانفطار:٦] [الانشقاق:٦].

الحادي والعشرون: ﴿.. يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون:١]:

١ – بيان المعنى:

وقد جاء النِّداء مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾، وذكر العلامة محمد الطَّاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أنَّ "افتتاحها بـ: ﴿قُلْ﴾؛ للاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلام يراد إبلاغه إلى النَّاس بوجه خاص منصوص فيه على أنَّه مرسل بقول يبلِّغه، وإلَّا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه، ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول في غير جواب عن سؤال منها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الذينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة:٦].

والسُّور المفتتحة بالأمر بالقول (خمس) سور: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ [الجن:١]: سورة الكافرون، وسورة الإخلاص، والمعوِّذتان، فالثَّلاث الأول لقول يبلِّغه، والمعوِّذتان لقول

يقوله لتعويذ نفسه. وابتدئ خطابهم بالنِّداء لإبلاغهم؛ لأنَّ النِّداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم[1].

والحاصل أنَّهم قد نودوا بوصف الكافرين؛ لأنَّهم كانوا كذلك؛ ولأنَّ في هذا النِّداء تحقيرًا لهم، واستخفافًا بهم، ولبيان أنَّهم ليسوا على شيءٍ، وتحريضًا لهم حتَّى يخرجوا من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وفيه أيضًا الإيذان بأنَّه (أي: مبلِّغ الخطاب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) لا يخشاهم فقد ناداهم بما يكرهون من الوصف، وبما يثيرُ غضبهم، وما ذاك إلَّا ثقةً بالله عَزَّوَجَلَّ الذي عصمه منهم وكفاه أذاهم.

وهنا قد يرد سؤال: "لم قال الله عَزَّوَجَلَّ في (سورة التَّحريم): ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾ [التَّحريم:٧]، ولم يذكر (قل)، وههنا ذكر: ﴿قُلْ﴾، وذكره باسم الفاعل؟ والجواب: الآية المذكورة في (سورة التَّحريم) إنما تقال لهم يوم القيامة، وثَمَّة لا يكون الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا إليهم، فأزال الواسطة، وفي ذلك الوقت يكونون مطيعينَ لا كافرين، فلذلك ذكره بلفظ الماضي، وأمَّا ههنا فهم كانوا موصوفين بالكفر، وكان الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رسولا إليهم، فلا جرم قال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾"[2].

وهنا أيضا مسألة مهمَّةٌ تتعلَّق بهذه الصِّيغة من الخطاب القرآني، قال: "قوله عَزَّوَجَلَّ ههنا: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خطاب مع الكلِّ أو مع البعض؟ الجواب: لا يجوز أن يكون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢]..خطابًا مع الكلِّ؛ لأنَّ في الكفَّار من يعبدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ كاليهود والنَّصارى فلا يجوز أن يقول لهم: ﴿لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ولا يجوز أيضًا أن يكون قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:٣-٥] خطابًا مع الكلِّ؛ لأنَّ في الكفَّار من آمن وصار بحيث يعبدُ الله عَزَّوَجَلَّ، فإذن وجب أن يُقال:

(١) انظر: التَّحرير والتَّنوير (٣٠/ ٥٣١).

(٢) تفسير الرَّازي (٣٢/٣٣٠).

إنَّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ خطابُ مشافهةٍ مع أقوامٍ مخصوصينَ، وهم الذين قالوا: نعبد إلهك سنة وتعبد آلهتنا سنة[1].

والحاصل أنَّا لو حملنا الخطاب على العموم دخل التَّخصيص، ولو حملنا على أنَّه خطابُ مشافهةٍ لم يلزمنا ذلك، فكان حمل الآية على هذا المحمل أولى.

٢ – إجمال ما يستفاد مما ولي المنادَى:

أ. الجمع بين الأمرِ والنِّداء يدلُّ على أهميَّة ما سيلقى إليهم؛ ولإظهار العناية بما بعد القول، فهو أمر مهمٌّ؛ لأنَّه أمر عقدي يقتضي التَّبليغ من المبلِّغ، ويقتضي الاستجابة من المخاطَبين.

ب. لقد سبق أنَّ الخطاب بنحو: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ هو من (خطاب الذَّم)؛ لتضمُّنه الإهانة، ولم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين.

ج. جاء الخطاب هنا مسبوقًا بـ: ﴿قُلْ﴾ حيث ينفع المكلَّفين الاستجابة للرَّسول المبلِّغ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي الآخرة يوم الجزاء ينقطع التَّكليف فيقال لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ كَفَرُوا لا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التَّحريم:٧].

د. أمَّا عدد الآيات التي وردت فيه هذه الصِّيغة من النِّداء فهو: [١].

أمَّا عدد التَّكرار فهو أيضًا: [١]. وهي: [الكافرون:١].

(١) انظر: تفسير الطَّبري (٦٦٢/٢٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣٤٧١/١٠)، القرطبي (٢٢٨/٢٠)، الرازي (٣٣١/٣٢)، الدُّر المنثور (٦٥٤/٨)، تفسير أبي السُّعود (٢٠٦/٩– ٢٠٧)، فتح القدير (٥/ ٥٠٨)، الوجيز، للواحدي (١٢٣٧/٢)، البغوي (٣١٧/٥)، تذكرة الأريب في تفسير الغريب (٣١٠/١).